كل الطرق تؤدي إلى مكّة، سيراً على الاقدام، على ظهور الجمال أو عن طريق الآلة البخاريّة، درب الحج الشامي، السّوري الأردني (القرن السابع إلى القرن العشرين)، قراءة جديدة بالاعتماد على تطبيقات نظم المعلومات الجغرافية

كلودين دوفان، محمد بن جدو و جون ماري كاستاكس

Abstract

The major GIS and Landscape Archaeology Project, "Fallahin and Nomads in the Southern Levant: Population Dynamics and Artistic Expression", conducted in Jordan since 2008, has demonstrated that three factors had a direct impact on site distribution: agrological potential, water sources and road networks. Literary, archaeological and cartographic data were collated, as well as constraints of the landscapes (relief, slopes and quality of soils) taken into account in order to reconstruct the Mediaeval Darb al-Hajj al-Shami within its natural environment, with twelve stop-overs, stretching from Damascus to Mecca and bisecting Jordan longitudinally (7th-15th centuries).

الجزء الاوّل

في ذكرى رحيل امرأتين فاضلتين: كريستال ماري بينيت (١٩١٨-١٩٨٧)، الخبيرة بالآثار الأردنيّة والمتخصصة بآثار مدينة أدوم، مؤسسة المدرسة البريطانية للآثار في القدس (١٩٦٨-١٩٧٨)، مؤسسة وأوّل مديرة للمعهد البريطاني، مجلس الأبحاث البريطانية في بلاد الشام، عمان (١٩٧٨-١٩٨٣)، الى جانب ''الحاجّة'' ريني دوفان جوفراي (١٩١٣-٢٠١٤)، كاتبة صحفيّة متخصّصة بشؤون الشرق الأوسط، عضو فريق مشروع دراسة ''الفلاحين والبدو الرُّحل جنوب بلاد الشام بين العهدين البيزنطي والمملوكي''، والتي احتفلت بعيد ميلادها المائة يوم ٣٠ نوفمبر ٢٠١٣، وقد شاركتنا، للمرة الأخيرة، في سلك درب الحج الشامي، بالأردن، خلال العهدين الإسلامي والعثماني **(الشكلين ١، ٢)**. ربيع سنة ١٩٧٣، كان اللقاء الذي جمع السيدتين في مدينة القدس، والذي نتج عنه تلاحم جميل ومشاعر طيبة. لا زالت صورة كل منهما ترتسم في اذهاننا بنفس الحب والاعجاب.

اعتمد هذا البحث على دراسة ١١٧٠ موقع أثري بجنوب الأردن، داخل حيز زمني يمتد من العهد البيزنطي (٣٢٥ – ٦٣٦) ميلادي حتى عهد المماليك (١٢٥٢ – ١٥١٧) ميلادي، وذلك في اطارمشروع البحث المتعلق بالفلاحين والبدو الرّحل بجنوب الشام من البيزنطيين الى

١. كريستال بينيت بصحبة الأب رولاند الدومنيكي دو فو بصدد معاينة قطع من الخزف: حفريّات السيّدة كاثلين كينيون بأريحا، ١٩٥٢ - ١٩٥٦ (© Simon Bennett).

المماليك: ديناميّة السكان وتنوع أشكال التعبير الثقافي.

وقد اثبتت هذه الدراسة أن توزيع السكان يعتمد أساسا على العناصر الثلاث: مدى صلاحية التربة للزراعة، عنصر توفّر المياه (الأنهار والعيون) وأخيراً شبكة الطرقات القديمة[1] (Dauphin and Ben Jeddou 2012, 2013).

شبكة الطرقات القديمة وتوزيع السكان

أظهرت عمليّات التحليل الاحصائيّة المكانيّة (تحليل مقياس المسافة الموزونة وكذلك تحديد خرائط البقع الساخنة والباردة (المرتفعة والمنخفضة) التي تهدف إلى قياس المسافة الفعلية التي تفصل الموقع عن شبكة الطرقات القديمة)، تغييرات أساسية شهدتها الطرقات القديمة بجنوب الأردن على إثر الفتح الإسلامي.

خلال الفترة البيزنطية، كانت تجارة التوابل التي تأتي من بلاد الهند والشرق الأقصى، تتبع ''طريق تراجان الجديد''، والذي امتد من ميناء إيلة على خليج العقبة إلى دمشق، مرورا بالبترا، التي كانت محطة استراتيجية تقع في نفس الوقت على طريق تجارة البخور القادم من جنوب الجزيرة العربية، حيث كانت تجلبه قوافل الجمال والقوارب إلى قاني بخليج عدن، لتخزينه هناك، ثمّ يقع نقله إلى شبوة ثم تمنع ومأرب قبل أن تتجه قوافله شمالاً إلى نجران، ومنها إلى المدينة ثمّ البترا ومن هناك تتجه غرباً عبر مدن

٢. ريني دوفان-دوفراي، كاتبة صحفيّة في الجيش العربي الفرنسي السويسري، وبصحيفة المصرية، ومراسلة الفيلق العربي خلال حرب فلسطين الأولى (١٩٤٨ - ١٩٤٩)، المقر الرئيسي للفيلق العربي، القدس القديمة ماي ١٩٤٨ (Claudine Dauphin © صورة Jacques Dauphin).

الأنباط إلى غزة والعريش(Groom 2002).

نفس اتجاه هذا الطريق جنوب – شمال اتخذه المسلمون لفتح فلسطين وسوريا بين سنتي ٦٣٤- ٦٣٦ ميلادي. (Dauphin 1998: 361-366, Fig. 108).

أثبت اعتماد تحليل ''الاتجاه العام للمعالم الخطية'' أنّ الاتجاه الذي يغلب على شبكة الطرقات القديمة كان يتسم بهيمنة المحور شرق-غرب، مروراً بنهر الأردن، وتحديداً في اتجاه القدس، المدينة التي كانت تمثّل نقطة محوريّة لكل المنطقة **(الشكل ٣، يسار)**.

---

١. تم جمع المادة المتعلقة بهذا البحث بالاعتماد على محاضرة نظمها المعهد البريطاني في عمان بمناسبة الذكرى ٢٦ على رحيل مؤسسته باحثة الاثار كريستال بينيت، بعنوان ''رحلة الحج إلى مكة سيراً على الأقدام وعلى ظهور الجمال: درب الحج في الأردن'' بتاريخ ٢٠١٥/٠٥/٢٥ في مركز الحسين الثقافي، تحت رعاية سمو الأمير الحسن بن طلال المعظم، وبحضور سمو الاميرة عالية بنت الحسين وسمو الاميرة سمية بنت الحسن وامين عمان الكبرى عقل بلتاجي.

ونود في هذه المناسبة أن نتوجه بالشكر والتقدير العميق إلى مدير عام دائرة الآثار العامة الدكتور منذر جمحاوي، ومساعده كذلك جهاد هارون، لتمكيننا من فرصة الاطلاع على قاعدة البيانات الجغرافية للآثار في الشرق الأوسط، (MEGA/JADIS).

وكذلك لمساعدتنا في الحصول على الخرائط الطبوغرافية للمملكة الأردنية الهاشمية بالمركز الجغرافي الملكي بعمّان والخرائط المتعلقة بالتربة بوزارة الزراعة، الخرائط الجيولوجية بوزارة الطاقة والثروة المعدنية، وكذلك البيانات الرقميّة المتعلقة بالآبار والعيون، بوزارة المياه والري.

كما نود بهذه المناسبة أن نشكر الدكتور عبدالقادر الحصان لمعلوماته القيمة التي أفادنا بها خاصة فيما يتعلق بدرب الحج العثماني، وقتيبة الدسوقي، مسّاح أثري بدائرة الاثار الذي اصطحبنا في رحلتنا للحصول على مختلف الخرائط، نادية القيسي، سكرتيرة بمعهد الأبحاث البريطاني في بلاد الشام، عمّان، وذلك حتى ابريل ٢٠١٦ التي قدمت لنا مساعدة قيّمة في العديد من المجالات، ساعدتنا دون شك على إنجاح مهمتنا.

نتوجه كذلك بالشكر الى معهد الأبحاث البريطاني في بلاد الشام، عمّان، لتبنيه تبنى مشروع بحثنا، و كذلك التمويل الذي تفضلت به مؤسسة أغسطين (موناكو – لندن) منذ سنة ٢٠١٤ والاهمية التي أولتها لانجاح عملنا.

وفي النهاية، لا يمكن أن ننسى المساندة التي لا تقدر بثمن التي قدمها لنا فتوح البنّا، تقني كمبيوتر بدائرة الاثار العامّة، والذي توفي سنة ٢٠٠٩، رحمه الله، وخاصة في سنة ٢٠٠٨ حيث اصطحب الدكتور محمد بن جدو الى سوريا، وكان طريق العودة من دمشق، هو نفس الطريق لقافلة الحج العثماني، محيين بذلك ذكرى رومنسيّة تمتد لاكثرمن ٦٠ سنة للكاتبة الصحفيّة ريني دوفان جوفراي لهذا الجزء الأردني من درب الحج الإسلامي والعثماني.

و نحن نتناول بالدرس ''درب الحج الى مكّة'' بالاعتماد على أنظمة المعلومات الجغرافيّة، نتمنى ان يكون هذا العمل، مساهمة في تكريمهم وأحياء ذكراهم.

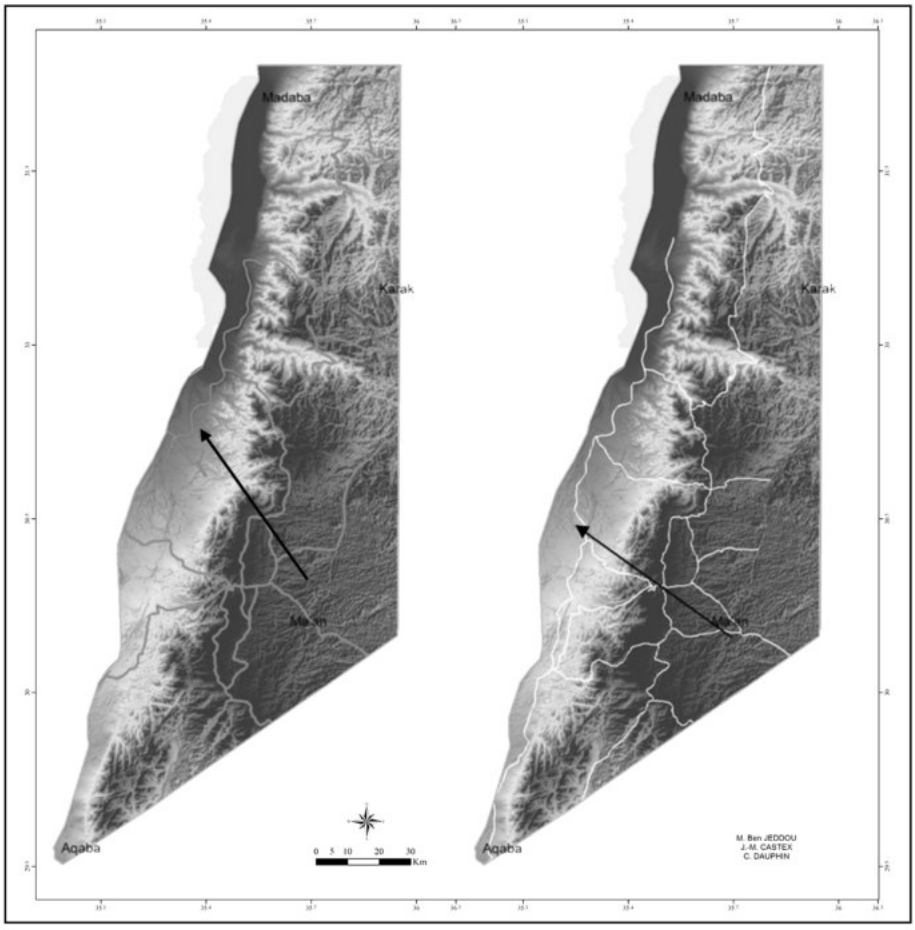

٣. الاتجاه العام للمعالم الخطية: على الشمال: الفترة البيزنطيّة، على اليمين: الفترة الاسلاميّة - المملوكيّة.
(خريطة: © M. Ben Jeddou, C. Dauphin, Castex, J.-M.).

خلال العهد الأموي، اتخذت طرقات التجارة وجهة معاكسة، تميّزت بسيطرة المحور: شمال – جنوب، وهو الاتجاه الذي تسلكه قوافل الحج التي تنطلق من دمشق الى مكّة، صاحب ذلك انتقال مركز الثقل من مدينة القدس لفائدة مدينة غزّة في الجنوب الغربي (الشكل ٣، يمين). كانت هذه الأخيرة محطة رئيسية تتلاقى فيها بضائع الشرق والغرب، وجسراً للقوافل التجارية وذلك حسب خط يتجه نحو معان ثم ينعطف نحو الجنوب الشرقي للوصول إلى مكّة.

من الملفت للانتباه أن التغيير في المشهد الطبيعي من المدينة، مدينة القدس – مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (سورة الإسراء:آية١) إلى صحراء مكّة، مدينة الدين الجديد، صاحبه كذلك تحوّل في اتجاه الصلاة، قال تعالى: (أَمْ تَقُولُونَ إِنّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١) سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النّاس مَا وَلّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (سورة البقرة :الآيتان ١٤٠-١٤٢)، من القدس الى مكّة، مولد الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنّ الّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّه الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمّا يَعْمَلُونَ) (سورة البقرة:الآية ١٤٤) سنة ٦٢٤ ميلادي (في العام الثاني للهجرة).

اظهرت دراسة درب الحج الشامي الى مكّة، منذ الفتح الإسلامي حتى القرن العشرين، تمكنت أدوات التحليل الإحصائي المكاني في تحديد هذا الطريق، و تتبع مراحل تطوره، لا سيما في الجزء الأردني منه.

الحج

قال تعالى: (وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ). (سورة البقرة الآية: ١٩٦).

قيادة الحج: الجمع بين السّياسي والمقدس (الشكل ٤)

في شهر مارس ٦٣٢ ميلادي قبل وقت قصير من وفاة النبي في المدينة المنورة، عزم النبي صلى الله عليه وآله وسلم على أداء فريضة الحج، وجمع بين الحج والعمرة، ثم خطب في الناس خطبته التي عرفت بخطبة الوداع والتي تعتبر دستور الإسلام، حث فيها المسلمين على الاتحاد وحذرهم من التفرقة ونادى بالمساواة بين الناس جميعاً. (Abd al-Haleem 2012 : 31-32).

قاد الرسول صلى الله عليه وسلم بنفسه موكب الحج، وكان ذلك بمثابة سنّة من بعده، ارتبطت بالإشراف على عمليّة الحج، والاقتداء بها لاحقاً، حيث إنّ الإشراف على عمليّة الحج أصبح يشكّل مظهراً من مظاهر ممارسة سلطة الدولة، لا سيّما فيما يتعلق بحماية الحجاج وأمنهم في مواجهة العطش، الجوع ومخاطر القبائل البدوية طيلة الرحلة.

بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حافظ الخلفاء

٤.العقيد جمال عبد الناصر، رئيس مصر(على الشمال)، مع وزير الدولة أنور السادات (على اليمين) أثناء أداء مناسك الحج ، بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٥٤، وعند وصولهما كان فى استقبالهما الملك سعود، ملك المملكة السعودية.

الراشدين بعملية الإشراف على الحج بأنفسهم انطلاقاً من المدينة المنورة (تبعد مسافة ٤٣٠ كم على مكّة) مقر إقامة الخليفة حتى عهد الخليفة علي بن أبي طالب (٦٠٠-٦٦١) ميلادية. و تروي المصادر التاريخيّة أنّ الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يشرف بنفسه على موكب الحج طيلة سنوات حكمه (٦٣٥-٦٤٤) ميلادية، و كذلك فعل خليفته عثمان بن عفّان رضي الله عنه حتى وفاته سنة ٦٥٦ ميلادية.

كما تمت في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمارة وتوسعة المسجد الحرام، و كذلك قام الخليفة عثمان بن عفّان رضي الله عنه بتوسعة الحرمين الشريفين بالحجاز.

مقابل ذلك، اقتصر عمل الخلفاء الاخرين في البداية على الاعتناء بالمدينتين الشريفتين (مكّة المكرّمة والمدينة

المنوّرة)، بالإضافة إلى بناء المساجد ومرافق الحجّاج. وقد تم نقل مقر الخلافة من المدينة النبوية بالحجاز إلى الكوفة في أرض العراق، في عهد الخليفة علي كرم الله وجهه، ثم إلى دمشق في عهد معاوية بن ابي سفيان (٦٦١-٦٨٠) منافس علي وخليفته.

منذ بداية حكمه سنة ٦٦١ ميلادية، أولى معاوية مكانة هامّة للحج، وقد اقترن ذلك بأمرين أساسيّين: تسييس عمليّة الحج من جهة، ومن جهة أخرى إتخاذ جملة من الإجراءات تهدف إلى تسهيل أمور الحجاج، ومن ذلك أنّ كسوة الكعبة أصبحت من أمر الخليفة، وذلك بهدف إضفاء طابع شخصي وسياسي.

يذكر اليعقوبي (المتوفى سنة ٨٩٧) ميلادية أن العامة كانت ترى أن الخلافة تحق لمن كان بيده أمر الحرمين الشريفين (مكّة والمدينة)، ولمن أقام الحج للناس، وقد أشرف معاوية على الحج في مناسبتين، اضافة الى تعيين اقاربه واصهاره على رأس قوافل الحج (AL- y'qobi 1883: 188).

وفي هذا الإطار، فقد قام معاوية بتولية ابنه يزيد على رأس الغزوات العسكريّة الصيفيّة ضد البيزنطيين، ثم مشرفاً على أمور الحج، في محاولة لتقديمه في صورة زعيم حقيقي جدير بتولي شؤون الأمّة الاسلاميّة، على الرغم من المعارضة الجديّة لاتجاه الخلافة عن طريق التوريث، و هو ما انتهى بأزمات دراماتيكّية.

في سنة ٦٩٥ ميلادية، قرر الخليفة عبدالملك بن مروان (حكم بين ٦٨٥ – ٧٠٥) ميلادية، تأدية الحج، بهدف تثبيت حكمه أمام الحجاج وأمام العامة في الحرمين الشريفين، كما أنّ ولده وخليفته على العرش: الوليد الأوّل (٧٠٥ – ٧١٥) ميلادي أدّى فريضة الحج مرة واحدة و كان ذلك سنة ٧١٠، في حين أعطى الأمر لحفر أبار في منطقة الحجاز، و تهيئة الطرقات لتسهيل حركة القوافل لا سيّما في المناطق الوعرة، كما عمل على تزويد مكّة بمياه الشرب.

في السنة الثانية من حكمه، قام هشام بن عبدالملك (٧٢٤ – ٧٤٣) ميلادي آخر الخلفاء الأمويين، بتأدية مناسك الحج، مصحوباً بقافلة تعد ٦٠٠ بعير لحمل المؤونة، و قد أمر بشق قنوات الري، وحفر الآبار وإنشاء البرك على طريق الحج الشامي من دمشق الى مكّة (Kennedy 92 -2012: 77).

طرق الحج (الشكل ٥)

طريق الحج العراقي: درب زبيدة

في سنة ٧٥٠ ميلادي، استطاع العباسيون أن يزيحوا الأمويين، و قد سمّي العباسيين كذلك نسبة إلى العباس ابن عبد المطلب، عم الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي ينحدرون منه.

بدأت دعوتهم في جنوب الأردن، من الحميمة، نقل العباسيون مقر حكمهم إلى العراق، فأصبحت قافلة الحج السلطانيّة تنطلق من الكوفة، ثم من بغداد، (العاصمة الجديدة للخلافة) بداية من سنة ٧٢٦ ميلادي، فكان على القافلة أن تقطع الصحاري الشمالية للمملكة السعودية حاليًّا للوصول إلى مكّة.

كانت الطريق العراقية تمتد على مسافة ١٣٠٠ كم تتخللها تضاريس متباينة، صحاري، جبال، أو سهول حجرية متواضعة تتخللها واحات. في مناطق عديدة، وقد وقعت تنقية الطريق من الحصى، أو نحتها وسط الصخور لا سيّما في المناطق الجبلية، وتم تهيئة الطريق من خلال إزالة الحجارة والحصى وشق الطرق في المناطق الجبلية وتهيئتها على أرض رملية سميكة، نظراً لتسهيل مرور قوافل الحجاج.

أمر الخليفة عبدالله بن العباس وكنيته أبو العباس (٧٥٠-٧٥٤) ميلادي بإقامة علامات ومنارات ومشاعل ومواقد توضح مسار الطريق، ليهتدي بها المسافرون ودوابهم ليلاً، هرباً من حر الشمس نهاراً.

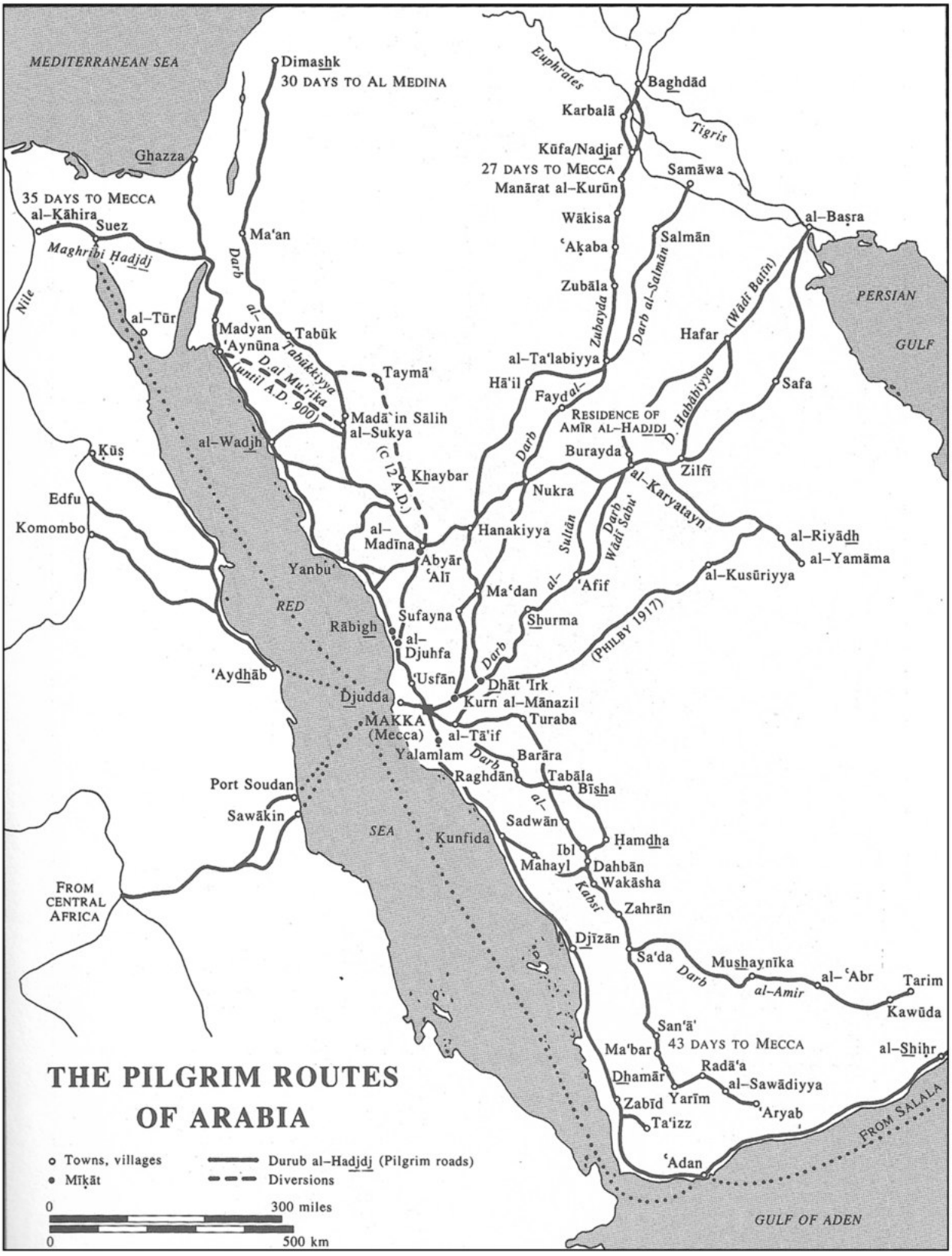

٥ . طريق الحج إلى مكّة (Peters 1994: xxiv).

(© F. E. Peters, The Hajj. The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places, Princeton University Press, Princeton 1994, xxiv خريطة ١ مقابل الصفحة).

وعلى غرار أحجار المسافة (الأميال) التي أقيمت على امتداد الطرق الشاميّة بأمر من الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان (AL-Rashid 1980: 229- 241)، وقع اكتشاف علامتي مسافة على طريق الحج العراقي، على احداهن وقع ذكر المسافة عن طريق الإشارات الإرشادية الرومانية في حين استعملت وحدة قياس (المسافة التي يقطعها المسافر في يوم واحد) في العلامة الأخرى.

على هذه الطريق، أقيمت خزّانات مياه (برك) مربعة او مستطيلة الشكل (٣٠-٥٠ متر/ بعمق ٥ م)، واستخدمت الحجارة في بناء الجدران مع تغطيتها بطبقة جصيّة، وكان بإمكان الحُجاج دخول هذه الخزانات عن طريق درج حجري. كما تم انشاء قلاع وخانات لإيواء العابرين، الذين كان اغلبهم ينامون في خيام، او في الهواء الطلق ملفوفين في ملابسهم.

قامت الخيزران وهي زوجة الخليفة المهدي ووالدة الخليفة هارون الرشيد مناسك الحج في عامي ٧٧٦ و ٧٨٨ ميلادي، وفى أثناء زيارتها الثانية قامت بشراء منزل الرسول وقامت بتحويله إلى مسجد.

امّا شغب وهي زوجة الخليفة العباسي المعتضد وأم الخليفة العباسي المقتدر بالله، فقد وزّعت على الحجاج المحتاجين ألف ألف دينار من ممتلكاتها وقدمت العديد من التبرعات إلى المدن المقدسة. ومع ذلك، فإن الطريق ارتبطت بزبيدة بنت جعفر، حفيدة الخليفة المنصور، التي كانت تقية وورعة جداً، وهي زوجة الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩) ميلادي، الذي كرّس جزءاً كبيراً من ثروته الشخصية لتطوير البنية التحتية لخدمة القوافل (محطات الراحة، والتزود بالوقود وخزانات المياه). كما أنها تنافست في الكرم مع زوجها، و عرف عنها تأديتها لمناسك الحج في كثير من الأحيان، و قد قام هارون الرشيد بالحج تسع مرات في حياته (Kennedy 2012 : 106). كما كتب المؤرخ الموسوعي المسعودي (حوالي٨٩٦-٩٥٦) ميلادي ما يلي:

" يتجلى مثال الأعمال الخيرية النبيلة في شخص أم جعفر زبيدة كانت لها عناية بإصلاح السبل وعمارتها، وتشييد الخانات على طريق الحاجّ من بغداد إلى مكة، فجعلت فيه المرافق والبركَ والأبار والمنازل التي لا تزال موجودة حتى يومنا هذا (كتاب مروج الذهب ومعادن الجواهر.) ولهذا السبب أطلق على الطريق العراقي للحج اسم درب زبيدة (Loiseau 2014: 66-67) . كان هارون الرشيد آخر الخلفاء العباسيين الذين استعملوا هذا الطريق للحج.

الفاطميون، الأيوبيون والمماليك : درب الحج المصري

الفاطميون

حاولت الدولة الفاطمية منذ سنة ٩١٣ ميلادي فتح مصر عدة مرات حتى تمكنت من ذلك فى سنة ٩٦٩ ميلادي، حيث قاموا بتأسيس عاصمتهم الجديدة: القاهرة، خارج مدينة الفسطاط، العاصمة التي يعود تاريخها الى سنة ٦٤٢ والتي شيّدت إبان الفترة البيزنطية على يد عمرو بن العاص عقب فتح مصر. (Raymond 1993: 13- 85).

كان الفاطميون يقدمون أنفسهم على أنهم المشرفين على عمليّة الحج، وخلال هذه الفترة، كانت كل من القاهرة ودمشق نقطة انطلاق لقوافل الحجيج، إلاّ أنّ القافلة المصرية كانت تحظى بأهميّة أكبر، إذ أنها كانت تحتوي إلى جانب الحجاج المصريين الحجاج القادمين من الأندلس والمغرب عن طريق البر أو البحر وكذلك افريقيا جنوب الصحراء، وخاصة مملكة مالي المتحولة إلى الإسلام.

كانت بداية الرحلة من بركة الحاج الواقعة ١٥ كم شمال القاهرة، حيث تنطلق القافلة إلى القلزم (السويس)، تقطع صحراء سيناء، وفي العقبة تلتقي مع قافلة الحج القادمة من غزة غرار الخليل ينضم اليها الحجاج القادمين من القدس. ثم تسير بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر الأحمر، وهو جزء خطير تنتشر فيه الآبار التي غالباً ما تكون بدون ماء. تقطع القافلة خلال هذه الرحلة ١٦٠٠٠ كم في ٣٥ يوماً وهي

المسافة بين القاهرة ومكّة.

في سنة ١١١٥ ميلادي، أصبحت العقبة تحت سلطة الصليبيين، فنتج عن ذلك تغيير مسار قافلة الحج المصري نحو الجنوب، حيث كان الحجاج المصريون يركبون السفن النيلية إلى قوص، ادفو أو كوم امبو، لتقطع الصحراء الشرقية في اتجاه عيذاب ثم يعبرون البحر إلى جدة.

وبرغم أن الخلفاء الفاطميين لم يسلكوا طريق الحج المصري، الا انهم كانوا يمارسون سلطتهم على مكّة عن طريق مؤونة الحبوب التي كانت تصاحب قافلة الحج، لتستفيد منها مكّة والمدينة بهدف تلبية حاجيات الحجاج السنوية. وقد استعمل الفاطميون سلاح الحبوب، بالإمتناع عن إرسالها إلى مكّة كلما حاول أميرها التمرد على الولاء الفاطمي، وذلك مثلما حدث سنة ٩٧٦ ميلادي. ومنذ البداية، أهتم الحكام الفاطميون بإرسال كسوة الكعبة كل عام من مصر، وكانت هذه الكسوة بيضاء اللون، في قطيعة رمزيّة مع اللون الأسود العبّاسي.

الأيوبيّون

منذ سنة ١١٧١ ميلادي، لقّب صلاح الدين بخادم الحرمين الشريفين مع الدعاء له أثناء خطبة الجمعة، كرمز للولاء السياسي للمدينة.

و في ظل الصليبيين، عرفت أراضي الأردن حتى خليج العقبة حالة من إنعدام الأمن، مما جعل طريق الحج المصري عبر سيناء وصولاً إلى العقبة محفوفة بالمخاطر، و بسبب ذلك اضطر الحجاج إلى استخدام الطريق الساحلي، عن طريق البحر الأحمر، أو القيام برحلة شاقة عن طريق بغداد (Loiseau 2014: 69- 70). وقد شهد أواخر العهد الأيوبي اضطرابات عديدة، حيث اغتيل آخر سلطان أيّوبي : الصالح أيوب (١٢٤٠-١٢٤٩) في القاهرة في عام ١٢٤٩ من قبل فوج من العبيد الأتراك الكيبشاك، اصيلي جنوب روسيا، و في نفس الفترة تقريباً، وقع أحد الإنفجارات البركانية قرب المدينة المنورة في عام١٢٥٦، أدّى إلى تدمير جزء من المسجد الكبير. كما سقطت بغداد على يد المغول عام ١٢٥٨ وأعدم الخليفة العباسي، وبذلك انقطع نشاط قافلتي الحج المصري الشامي في اتجاه مكّة، لفترة طويلة.

المماليك

اتخذت دولة المماليك البحريّة جزيرة الروضة في بحر النيل مركزاً لهم، و كانوا قد بسطوا حكمهم على كل من مصر وسوريا بين سنتي (١٢٥٢ – ١٣٨٢) ميلادي، كما شهدت فترة حكمهم عودة الحج الى مكّة. سمحت انتصارات الظاهر بيبرس (حكم بين سنتي ١٢٦٠ – ١٢٧٧) ميلادي على الصليبيين من إعادة نشاط قافلة الحج المصري سنة ١٢٦٦ ميلادي عبر الطريق البرّي مروراً بالعقبة (**الشكل ٦**).

ترجع تقاليد إرسال الكسوة إلى مكّة لتكسى بها الكعبة، إلى الملك الظاهر في نفس السنة، وهو عبارة عن نسيج حريري أسود اللون كان يتم تطريزه في مصر، وكان يقود القافلة موكب المحمل: جمل يحمل إطار خشبي مربع وفوقه هرم، ويسدل عليه كسوة من الحرير الأصفر (رمز السلطة المملوكيّة) وعلى أطرافه ستور من الديباج عليها زخارف مطرزة تطريزاً فاخراً بالذهب. ويحمل المحمل مصحفين صغيرين (**الشكل ٧**). وبعد الحج يعود المحمل حاملاً الكسوة القديمة للكعبة بعد ابدالها بالكسوة الجديدة. وهذه العادة، من شأنها أن تكرّس هيمنة السلطة المصريّة على المدينتين المقدستين، وكذلك على قوافل الحج المصرية والشامية وطرقها، كما تكسب السلطان لقب حامي الحرمين الشريفين.

كان للمماليك أفعال كثيرة في طريق الحج، منها حفر أبار جديدة وتشييد الخانات ومحطات الإستراحة على الطريق المصري
(Abd al-Malik 2013: 52- 58)، كما كان فقراء

٦ . مقامات الحريري، بقلم يحيى الواسطي، العراق ١٢٣٧،المقامة الحادية والثلاثون: «قافلة الحجاج» إلى مكّة، محمل (الحج) وعليه غشاء من حرير أصفر، رمز السلطة المملوكيّة.

الحجاج يتمتعون بالخدمات الوقفية (الوقف) لاستئجار دابة وتجهيز أنفسهم لعبور الصحراء.

وعلى الرغم من أن الحج يقع في الشهر الثاني عشر من السنة (ذي الحجة)، كان المحمل يطوف الشوارع قبل الخروج إلى الحجاز، في الشهر القمري السابع (رجب)، أو في الشهر العاشر (شوال). كان يصاحب هذا الإحتفال تعيين الوالي أمير الحج، من بين رجاله المشهود لهم بالكفاءة والتقوى، ومن ثم يبدأ أمير الحج باختيار أعوانه ورجاله.

في سنة ١٣٢٥، بدأ ابن بطوطة رحلته إلى مكة برا عبر ساحل شمال إفريقيا، وقد نقل لنا وصف موكب المحفل وهو يمر في شوارع القاهرة، ويخرج خلفه الجمال التي تحمل المياه، وأمتعة الحجاج، يليهم الجند الذين سيحرسون الموكب حتى الحجاز، ثمّ رجال الطرق الصوفية الذين يدقون الطبل ويرفعون الرايات. ومع مرور الزمن، تحول الموكب تدريجياً لكرنفال وضع العثمانيين حداً له، مع الحفاظ على تقاليد الموكب نفسه.

العثمانيون

دخلت جيوش السلطان سليم الأول العثماني بلاد الشام ومصر بعد انتصارها على المماليك الشركس أو المماليك البرجية (١٣٨٢-١٥١٧) من أصل شركسي أو الجورجي، الذين سكنوا خاصة في أبراج القلعة (البرج). أرسل السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) إلى مكة المكرمة في سنة ١٥١٦ قافلة من دمشق محملة بأموال الأوقاف والهدايا إلى أهالي الحرمين الشريفين، وكسوة مطرزة تحمل اسم اسلافه. ومنذ ذلك الحين، اصبحت المحامل العثمانية تغطّى

٧ . المحمل المصري الشريف في جبل عرفات، الطباعة على الورقة باستخدام الحبر الملوّن، بداية القرن العشرين Cairo Punch.

بالحرير الأحمر أو الأخضر عوضاً عن الأصفر. وهذا المحمل، هو عبارة عن قطعة من القماش المتين، كتب عليه بالخيوط الذهبية الآيات القرآنية، كان يوضع في مكان تجمع الحجاج، ويوم المحمل، يخرج موكب الحج الشريف مع المحمل والسنجق إلى وسط دمشق استعداداً للرحيل، حيث يوضع (المحمل) على ظهر جملٍ جميل الشكل قوي وعال لا يستخدم لأي عمل سوى الحج، ويحمل إضافة للمحمل الكسوة السلطانية إلى الكعبة الشريفة، وكان هذا الحدث مناسبة لتوزيع الصدقات والهدايا على الفقراء والأشراف والسادات والعلماء.

درب الحج الشامي الأردني من الأمويين إلى المماليك

إنّ أهمية أي طريق بالذات، لا تستطيع أن تحدده التقلبات السياسية وحدها، ولكن أيضاً شهادات المصادر وما تبقى على أرض الواقع. وفي هذا الإطار، تكشف البقايا الأثرية والمصادر الخرائطية أن مسار درب الحج الشامي من دمشق إلى مكة المكرّمة شهد تغيراً على مر القرون، وهناك في الواقع ثلاثة دروب للحج الشامي: درب العصور الوسطى، من الفتح الإسلامي (القرن السابع) حتى سلطنة المماليك (القرن الخامس عشر)؛ الدرب العثماني (من القرن السادس عشر- حتى أوائل القرن العشرين) وأخيراً، الخط الحديدي الحجازي الذي وقع افتتاحه في عام ١٩١٠ في ظل تراجع أهمّية الإمبراطورية العثمانية.

المصادر التاريخية الإسلاميّة

تعتبر هذه الطريق واحدة من أهم الطرق الرئيسية بين الجزيرة العربية ودمشق، عاصمة السلالة الحاكمة الأولى من الأمويين. وقد وقع التطرق إلى درب الحج الشامي الأردني في العديد من الكتب، خصوصاً الجغرافية منها (AL-Wohaibi 1973). إلاّ أنّ المعلومة المتوفّرة في هذه المصادر تقتصر في بعض الأحيان على ذكر بسيط لأسماء الأماكن.

أوّل أثر لرحّالة تحدّث عن الدرب الشامي الأردني عام ١٣٥٧، هو ما نقله لنا ابن الجوزي عن الرحالة ابن بطوطة (طنجة ١٣٠٤-المغرب ١٣٦٨-١٣٦٩ أو ١٣٧٧) والذي خط منها كتاباً بعنوان " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب

الأسفار" أو ما يعرف اختصارا باسم " رحلة ابن بطوطة".

في البداية، سار ابن بطوطة من القاهرة إلى عَيذاب، قاصداً الإبحار من هناك إلى الحجاز عن طريق البحر الأحمر. ولما تعذّر سفره بحراً، بسبب حرب قامت بين البجاة والمماليك، رجع إلى مصر، وتابع رحلته عن طريق فلسطين، ولبنان، وسورية (١٣٢٦)، فالحجاز.

عرفت دمشق خلال القرن الخامس عشر تواجد عدد من الحجاج المسيحيين القاصدين أو الوافدين من الأماكن المسيحيّة المقدسة، وقد صادف تواجد برتراند دولا بروكيار Bertrandon de la Brocquière سنة ١٤٣٢ عودة قافلة الحج الشامي، حيث تستغرق عودة ٣٠٠٠ بعير الى مساكنها بالمدينة يومين وليلتين (Wright 1848: 301-302 and 309).

يعتبر لودفيكو دي فارتيما، أصيل مدينة بولونيا، أوّل مستشرق يصل مكة المكرمة، حيث زار في شتاء ١٥٠٣ كل من الاسكندريّة، بيروت، حلب، وادعى كونه أحد المماليك المعتنقين للإسلام حتى يتمكن من الذهاب إلى الأماكن الإسلامية المقدسة وعيَّنوه حارسًا من حرَّاس القافلة. وبذلك أمَّن لنفسه مكانًا في القافلة الذَّاهبة إلى مكَّة المكرَّمة انطلاقاً من دمشق خلال شهري أبريل ويونيو (Jones and Badger 1863 eds: 16-19).

قافلة الحج السورية الاردنيّة

ما هي خصائص هذه القافلة؟

وصفت بعض الدراسات قافلتي الحج المصرية والشاميّة على أنها " مدن صغيرة متحرّكة" (Irwin 2012: 143: Small Towns on the Move).

بلغ تعداد الحج في ذروة الحج العثماني (القرن السادس عشر – القرن الثامن عشر)، ما بين ٢٠٠٠٠ و ٦٠٠٠٠ حاج (Petersen 2012: 34). ليتدنّى هذا العدد الى ٦٠٠٠ فقط (حيث الحجاج سيراً على الأقدام أكثر من النصف) في نهاية القرن التاسع عشر، مصحوبين بحوالي ١٠٠٠٠ رأس من الدواب (خاصة الجمال، البغال، والأحمرة) بحسب داوتي (Doughty 2001: 40) الذي اصطحب قافلة الحج من دمشق إلى مدائن صالح في خريف ١٨٧٦.

ولعل أفضل من كتب عن قافلة الحج المصري هو العلامة عبد القادر الأنصاري الجزيري، كاتب ديوان الحج بمصر في القرن السادس عشر، والذي ترك لنا مخطوطاً هاماً عن تنظيم شؤون القافلة.
(Jomier 1953 ; Faroqhuhi 1994: 33-35).

كانت قافلة الحج المصري يتقدمها عدد من البدو، الذين كانوا يقومون بمهمة الدليل، ثم نجد فريق السقّائين، يليهم الأشراف المكلفين بشؤون المحمل والكسوة والأعيان المشرفين على صندوق المال والقوت والنساء والبضائع الثمينة والتي كانت توضع وسط القافلة، كما تقرّر لحراسة المحمل قوة عسكرية من الجنود الرماة (أيضاً المدفعية في العهد العثماني) بالإضافة إلى حملة القناديل للإضاءة ليلاً في الصيف لتجنب حرارة الشمس اليومية الحارقة، وأخيراً يتبع القافلة ركب الحجاج العاديين.

وقد وصف داوتي القافلة حيث يتقدمها أمير الحج، يمتد خلفه رتل من الجمال والحجاج على مسافة ميلين (١٥ – ٢٠ دقيقة بين أوّل القافلة واخرها). في مقدمة القافلة، عادة ٣ أو ٤ جمال يحملون أجراساً كبيرة، مشدودين يتقدمهم الجمّالين **(الشكل ٨)**. وفي العادة، فإنّ جمال الحج لا ترعى أبداً أثناء المسير ولكنها تغذى أثناء الاستراحة بعلف تحمله على ظهورها. وفي الخانات والقلاع المنتشرة على طول الطريق، يودع الحجاج ودائعهم وبعض الطعام لدوابهم للعودة. وباعتبار قلة المراعي خاصة بجنوب الأردن، كان علف الدواب يتكون أحياناً من خبز الشعير أو من البيقية. ورغم أنّ الحجّاج يحملون معهم قوتهم، إلا أنهم يضطرون في بعض الأحيان لشراء ما يحتاجون اليه من البدو أو من المدن والقرى. وفي سنوات الجفاف، يضطر الحجاج لحمل

٨. حجّاج في طريقهم إلى مكّة، لوحة زيتيّة على قماش ١٨٦١، (طول : ١٦١ سنتمتر x عرض : ٢٤٢ سنتمتر).
(Hervé Léwandowski © Musée d'Orsay, Paris).

حاجتهم من الماء على ظهور الجمال.

كان الحجاج غالباً ينقسمون إلى مجموعات تتكوّن من ١٠ إلى ٢٠ شخص، يتم الإتفاق في البداية على كراء الجمال مع المقومين الذين يتعهدون بخدمة الحجاج وتأمين راحتهم من ركوب وإقامة وطعام، بل ويتعهدون حسب الإتفاق بتغيير الجمال التي تموت في الطريق، و في بعض الحالات يتعهد المقوّم باصطحاب القافلة، مع عدد وافر من الجمال من جميع ما يلزمها من عِدَد، وهي الخيم ومعداتها، التخوت، والمحاير، والشباري وغيرها، مع وجود أنواع الخَدَمة، من عكّامة وغلمان، وطباخين، ومهاترة، وسقاية... على أن يكون سفره يوماً قبل سفر القافلة الرئيسيّة أو يوماً بعدها (Petersen 2012: 34).

مخاطر الطريق

كانت المخاطر التي تواجهها طريق القافلة الشاميّة عديدة: ففي فصل الشتاء: فيضانات بسبب الأنهار بعد هطول أمطار غزيرة، وعواصف رملية تعيق الرؤية في فصلي الخريف والربيع، إضافة إلى ظاهرة السراب عندما تسطع الشمس في الصيف. إلا أن الأشد خطورةً على المهاجرين هو خاصة غزوات البدو. ولذلك، فإن من مصلحة هذه القافلة أن تكون تحت حماية السلطات الرسميّة لضمان امنها.

ولحماية طرق هذه القوافل كانت الدولة العثمانية تقيم الحصون والقلاع على طول مسار الحج، وكان كل والٍ لولاية عثمانية مسؤولاً عن حماية قافلة الحج الشامي حتى تصل إلى حدود الولاية الأخرى، ولتأمين سلامة القافلة من هجمات البدو وجدت الدولة العثمانية حلاً يتمثل في شراء ولاء القبائل العربية الكبرى التي تسيطر على الطريق، مقابل عمل بعض أبناء القبائل كأدلاء للقافلة في الصحراء، وتجنيد القبيلة للدفاع عن الحجاج إن لزم ذلك، وكان أمراء الحج يدفعون نصف المبلغ في مرحلة الذهاب، والنصف الآخر أثناء الإياب حيث تكون القافلة محملة ببضاعة الحجاز، وقد تأخذ هذه الاعتداءات في بعض الأحيان طابعاً دراماتيكيّا. ومن ذلك فإنّه خلال القرن الثامن عشر، وبسبب اقصاء قبيلة عنيزة لقبيلة بني صخر فيما يتعلق بالأموال التي كانت تدفع للبدو من السلطات العثمانية، تعرضت الجردة (وهي قافلة مؤن تُعد لإسعاف الحجاج في طريق عودتهم إلى بلاد الشام خشية أن يكون ما عندهم منها قد نفد) التي خرجت لملاقاة الحجاج العائدين من الحج في ١٧٥٧ لهجوم من طرف قبيلة بني صخر، بين القطرانة ومعان جنوب الأردن، و قد حاول أمير الحج، حسين باشا، والي دمشق التصدي لبني صخر دون جدوى. أمّا قافلة الحج، فبينما هي عائدة على الطريق السلطاني، إذ بها تتعرض بين منزلتي تبوك وذات حج إلى هجوم عنيف من طرف قبائل بني صخر. وحوصرت في تبوك زمناً، و قد قتل معظم الحجاج والعسكر الذين معهم، بسبب الجروح، الجوع والعطش، وكان من بينهم أخت السلطان عثمان الثالث (1754 - 1757) (Peters 1994: 161 - -162).

منهُج وأسلوب الدراسة

إن دراسة الجزء الأردني من درب الحج الشامي من طرف الباحثين الأردنيين، وخصوصاً عبد القادر الحصان (١٩٩٩، ٢٠٠٧، ٢٠٠٨) وزياد السلامين (٢٠١٠)، إضافة إلى علماء الآثار البريطانيين أمثال بيترسون

Andrew Petersen (2012) وكنيدي Hugh (2012) Kennedy تركّزت خاصة على دراسة المعالم، من خلال القلاع التي أقيمت على الدرب العثماني.

خلافاً لذلك، تذهب دراستنا إلى الربط بين الآثار في علاقة بالمشهد الطبيعي، وذلك باستخدام التحليل الإحصائي المكاني في إطارمشروع نظم المعلومات الجغرافيّة، وهو ما يمكننا من الإجابة على بعض الأسئلة من قبيل: كيف يمكن ان نفسّر تغيير درب الحج لمساره؟ هل أن اختيار درب الحج خضع لعوامل طبيعيّة أم انسانيّة؟ إلى أي مدى كان اختيار المسار مثاليّاً، بالنظر للعوامل الطبيعيّة أساساً، بالنسبة لكل فترة؟

قاعدة البيانات الطبيعيّة

تهدف مقاربتنا للموضوع إلى مراجعة العلاقات بين الطرق الثلاث، وخاصة في علاقتها بأهم مكوّنات المشهد الطبيعي (**الشكل ٩**)، بالإضافة إلى إنشاء خرائط تفاعلية، و ذلك مثل نموذج الارتفاع الرقمي، وكذلك إجراء حسابات تتعلق بدرجات الإنحدار واتجاهه، شبكة الأنهار، العيون و مخازن المياه (**الشكل ١٠**). والهدف من ذلك هو محاولة إيجاد قواعد تترجم تأثير المشهد الطبيعي في إنشاء الطرق بالإعتماد على أدوات التحليل الإحصائي المكاني، وهذه الإجراءات تتم في إطار مشروع نظم المعلومات الجغرافية. كما تسمح لنا هذه العمليات بمحاولة تحديد أقصر مسار متغيّر حسب الفترات الزمنيّة، وفي النهاية، مقارنة ما توصّلنا اليه بالطريق الواقعي.

العديد من المعطيات يجب أخذها بعين الإعتبار، منها خاصّة، مجال الرؤية، توفر مسافة الأمان من خلال ما يسمح به الإرتفاع والرؤية، العوائق الطبيعيّة وعنصر المناخ.

على مستوى التساقطات، تتراجع كميّة معدلات الامطار من دمشق إلى معان، من ٣٠٠ مم إلى ٤٠٠ مم، على أن كميّة النتح التبخّري المحتمل السنوية تتضاعف

٩. مشهد من التلال البركانيّة بين بطن الغول و المدوّرة، (© C. Dauphin).

من ١٤٥٠مم إلى ٢٤٠٠ مم. كما تعوّض النباتات الفقيرة بقيعان الأودية خاصة بجنوب الأردن، طبقة الغطاء النباتي الهامة بالشمال. وبإعتبار ارتفاع التضاريس في جنوب منطقة دراستنا، يصبح المناخ جافاً أكثر تدريجياً من الشمال إلى الجنوب، ومن الغرب إلى الشرق. في مثل هذه البيئة الطبيعيّة القاحلة، كان على الحجاج الإستعداد لمواجهة الظروف المناخية الصعبة انطلاقاً من جنوب عمان.

قاعدة البيانات الأثرية

بفضل اطلاعنا على القاعدة الرقمية للبيانات الأثرية بدائرة الآثار العامة بالأردن، أتيحت لنا فرصة تسجيل جميع المواقع الأثرية التي تغطي زمنيّا الفترة الممتدة من العهد البيزنطي إلى العهد العثماني، وجغرافيّاً، المنطقة الواقعة من الرمثا في الشمال على الحدود السورية، إلى مدوّرة جنوباً على الحدود السعوديّة.

وبترخيص من دائرة الآثار العامة بالأردن ومن المعهد الجغرافي الملكي، أمكن لنا الحصول على الخرائط الطبوغرافية ذات مقياس ١:٥٠٠٠٠، بعد تحديثها ودمجها في خريطة واحدة، وهو ما مكّننا في النهاية من إنشاء ٤ خرائط تفاعليّة ذات صبغة زمنية – مجالية.

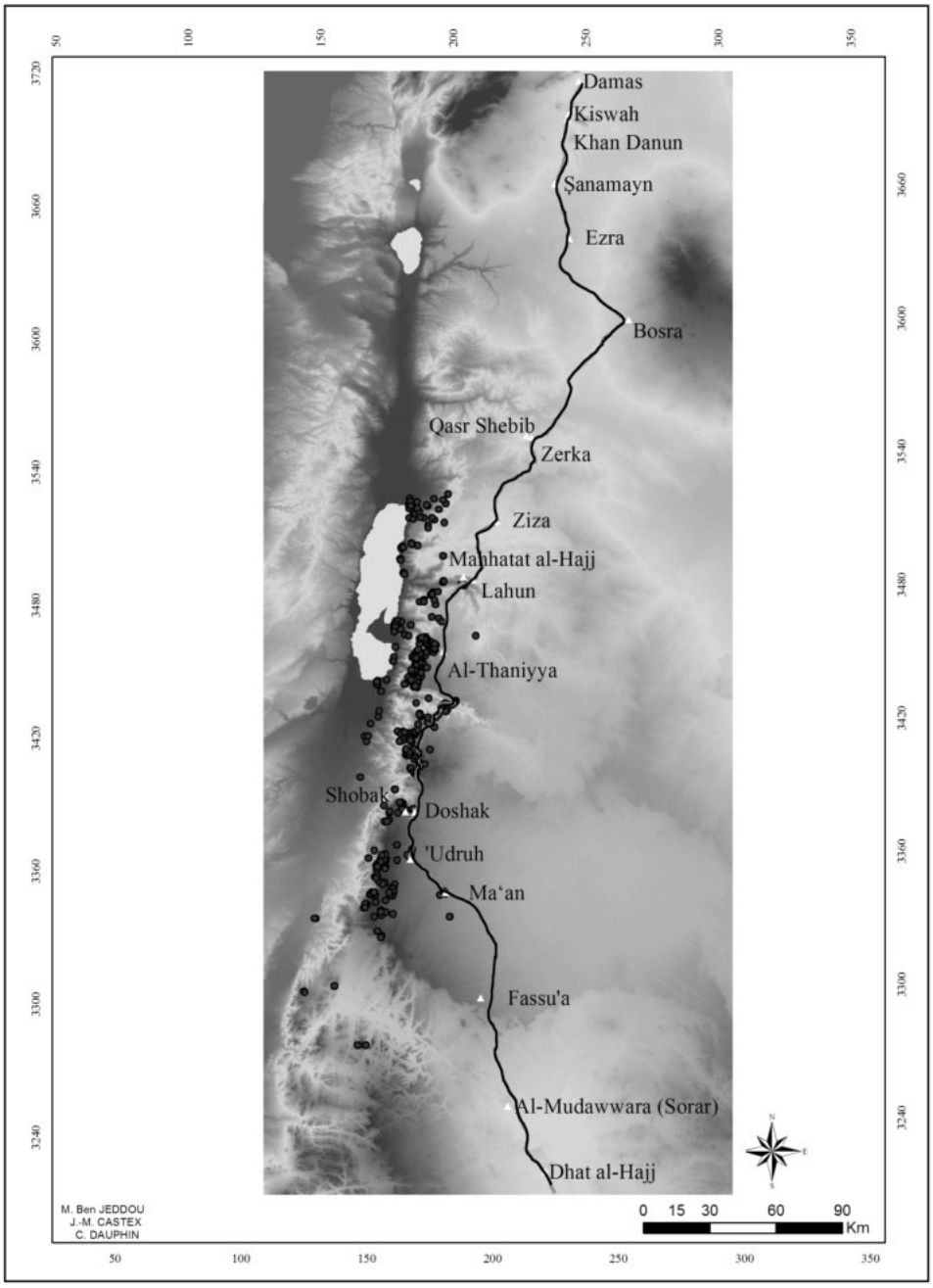

١٠. خريطة توزّع نقاط المياه (العيون) في علاقة بطريق الحج في الفترة الاسلامية(خريطة © M. Ben Jeddou, Dauphin, C. ; Castex, J, M).

و في مرحلة ثانية، قمنا بتقسيم زمني للمواقع الأثرية إلى ٤ أقسام :

- الفترة البيزنطية حتى بداية الفتح العربي سنة ٦٣٦ : ٢٣٦٧ موقع أثري
- الفترة الإسلامية: وهي تغطي الفترة الأموية، العباسيّة والفاطميّة: ١١٨١ موقع أثري.
- فترة الصليبين، الأيوبيين والمماليك: ٨٩٤ موقع أثري
- الفترة العثمانيّة: ٩٩٥ موقع أثري

من خلال قراءة سريعة لهذه المعطيات، يمكن لنا أن نلمس التراجع الديمغرافي التي شهدته منطقة جنوب الأردن إلى غاية الفترة المملوكيّة (وهو ما نلاحظه كذلك بفلسطين في نفس الفترات). (Dauphin 1998: 351 -352).

يلي ذلك تحسناً طفيفاً في الفترة العثمانية (**الأشكال ١٤-١١**). مع احتفاظ منطقتين بجنوب بلاد الشام (منطقة

الديكابولس ومنطقة الكرك) بكثافة سكانية عالية على الرغم من تراجعها إلى النصف بين العهدين البيزنطي والإسلامي، ثم انخفضت هذه الكثافة الى الثلث ما بين الفترة الإسلامية وفترة الصليبيّن، الأيوبيين والمماليك.

تمثّل الديكابولس المنطقة الأولى، و أبرز مدنها: جراسا (جرش)، جادارا (أم قيس) وهي عامّة شمال الأردن: الوديان الزراعية الخصبة التي تقع في منطقة البلقاء والتي تمتد جغرافياً من البحر الميت إلى تلال غابات الفستق البري، البلوط، والصنوبر الحلبي، وسهول الحبوب ومساحات من أشجار الزيتون والتين خاصّة حول قلعة عجلون التي بناها القائد عز الدين أسامه عام ١١٨٤ أحد قادة صلاح الدين الأيوبي، بهدف درء انتشار القوات الصليبية المتواجدة بغرب الأردن في بلفوار "المنظر الجميل": قلعة المؤابيين (الكرك).

أمّا المنطقة الثانية فهي منطقة الكرك المعروفة بخصوبة تربتها وبأراضيها الزراعيّة على شكل نظام المصاطب والتي تشكّل في نفس الوقت نقطة إلتقاء للطريق التجارية التي تربط من جهة شمال البلاد بالمناطق الصحراويّة (طريق الملوك أو الدرب السلطاني) ومن جهة أخرى الطريق التي تربط بين الصحراء الشرقية والبحر الميت غرباً.

شكّلت هذه الطريق منذ العهد البيزنطي حتى العهد المملوكي حداً "طبيعيّا" فاصلاً أمام إمكانية تواجد المواقع الأثرية شرقاً، باستثناء منطقة الكرك حيث نلاحظ استيطان بشري شرق هذا الحد.

يعتبر التحوّل الديمغرافي الذي شهده شرق الأردن من أبرز نتائج تأسيس درب الحج الجديد من طرف العثمانيين، فقد تضاعف عدد المواقع الأثرية بشرق الكرك وجنوبها، إضافة إلى تركّز مجموعات جديدة وإنشاء قلاعاً على جانبي هذا الطريق، بهدف تلبية حاجيات الحاميات المتواجدة بالصحراء وكذلك مستلزمات الحجاج خاصّة من المواد الفلاحيّة (**الشكل ١٤**).

درب الحج خلال العصر الإسلامي (الشكلين ١٢، ١٣)

لم يكن طريق الحج مجرد محطات استراحة أو نقاط عبور فقط، بل كان أيضاً وسيلة تحايل على العوائق الطبيعية. وهذا ما يفسر تعرضنا بالتدقيق في هذه الدراسة لوصف مكوّنات المشهد الطبيعي خلال الرحلة، و ذلك حتى يتسنى للقارئ مشاركة الحجاج طريقهم في صورة قريبة من الواقع.

سنتابع قافلة الحج الشامية وقد خرجت من **دمشق**، حيث كان الحجاج قد تجمّعوا أمام ساحة المسجد الأموي الذي أمر الوليد بن عبد الملك بتشييده في وسط دمشق سنة ٧١٦، وسط احتفالات عظيمة تتم تحت إشراف الوالي نفسه، وبمجرد أن تغادر دمشق، كان على القافلة ان تقطع سهلاً خصيباً يصل معدل ارتفاعه إلى ٦٨٠، ويتميز بتربته المتنوعة والمتمثلة خاصّة في الرسوبيات الجليدية الصغيرة مثل الطين الطمي. ورغم كمية التساقطات المتواضعة (٢٠٠مم)، فان هذه المنطقة التي تتبع ريف دمشق، تمثّل بساطاً أخضراً من مختلف الأشجار والزروع وتسقى من مجموعة أنهار من فروع نهر بردى، وتُسمى الغوطة (**الشكل ١٥**).

شكلت الغوطة لوحة من الفسيفسائية تزيّن الرواق الغربي من فناء المسجد الأموي، ويطلق عليها "**لوحة بردى**" لما تتضمنه من رسوم وزخارف تبرز طبيعة دمشق الخلّابة وغوطتها ونهرها الجميل: بردى (Brisch 1988 ; Flood 2001).

وصف ابن بطوطة مدينة " **الكسوة** " على أنها قرية (الرحلة ٤)، وهي مدينة صغيرة حسب الإدريسي، سنة ١١٥٤، كانت تضم موضع راحة المسافرين، (Musil 1926: 328) و هذه المدينة متاخمة لنهر "الأعوج " دائم الجريان، وفي هذه المنطقة، يكون قعر المجرى المائي واسعاً وتتكون تربته الخصبة من تشكيلات متنوعة شكلت مصاطب نهرية رسوبية منذ العهد الميوسيني: جيرية،

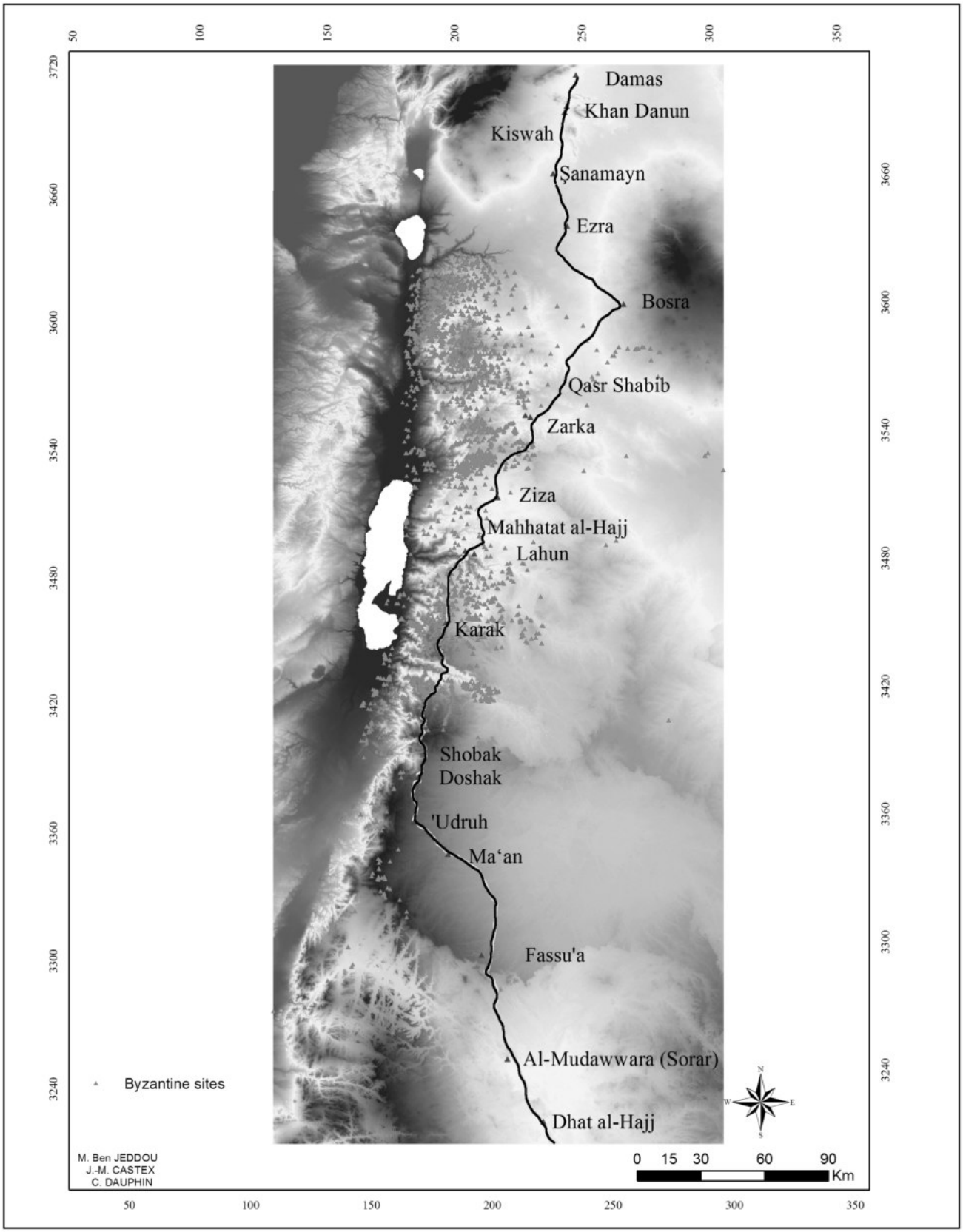

١١. خريطة المواقع الأثرية البيزنطيّة بالأردن إبّان الفتح الإسلامي، سنة ٦٣٦، (خريطة © M. Ben Jeddou, C. Dauphin, J.-M. Castex).

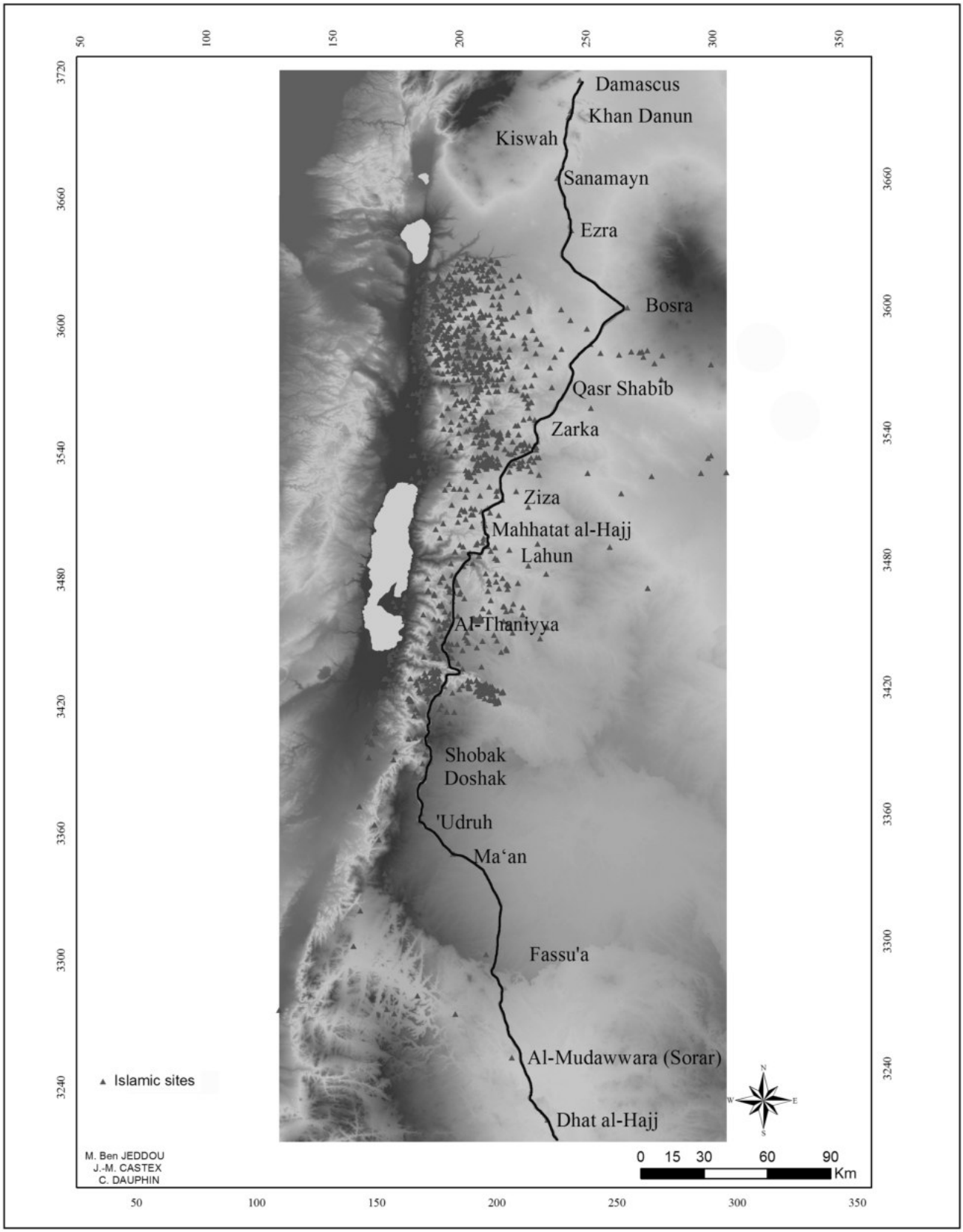

١٢. خريطة المواقع الأثرية الإسلاميّة بالأردن إلى جانب طريق الحج خلال هذه الفترة، (خريطة © M. Ben Jeddou, C. Dauphin, J.-M. Castex).

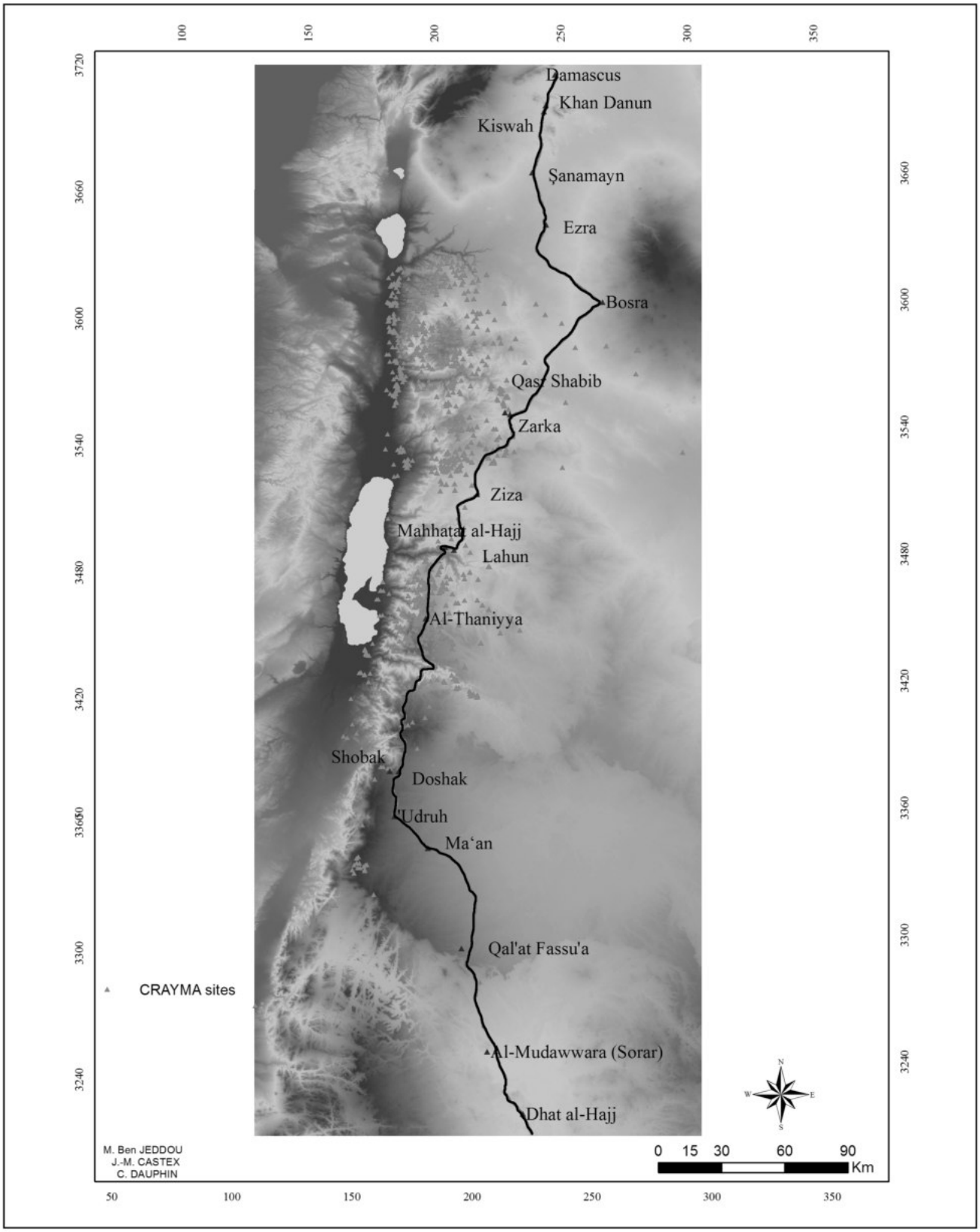

١٣..خريطة المواقع الأثرية بالأردن خلال الفترات: الصليبيّة، الأيوبيّة والمملوكيّة إلى جانب طريق الحج خلال هذه الفترة.
(خريطة © M. Ben Jeddou, C. Dauphin, J.-M. Castex).

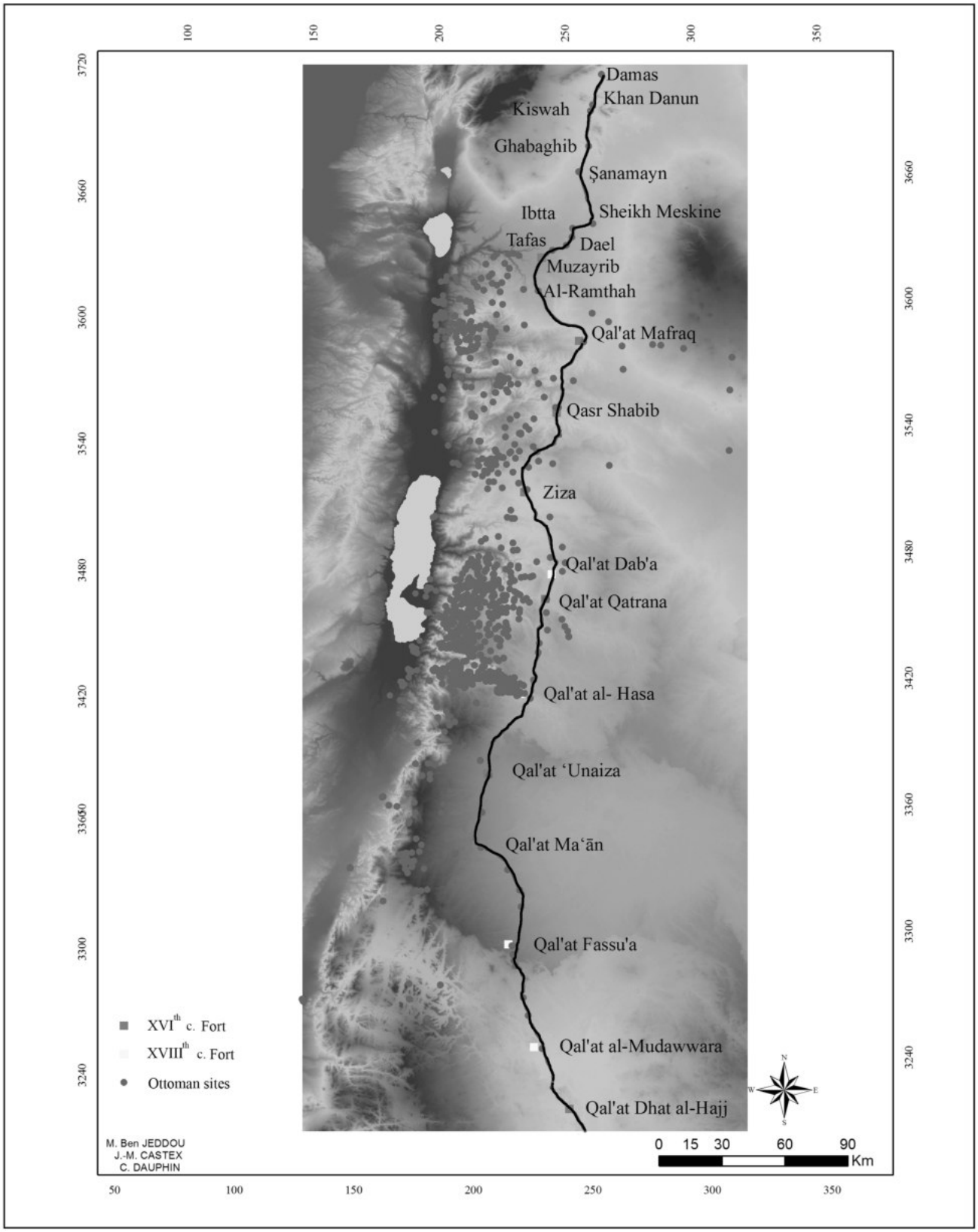

١٤. خريطة توزّع المواقع الأثريّة والخانات خلال الفترة العثمانيّة، القرنين السادس عشر، والسابع عشر.

(خريطة © M. Ben Jeddou, C. Dauphin, J.-M. Castex).

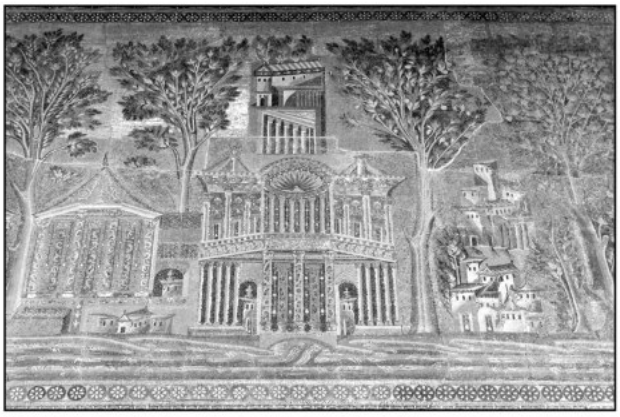

١٥. المسجد الأموي (٧٠٦-٧١٥)، دمشق، لوحة بردى، فسيفساء في الرواق الغربي يطلق عليها «لوحة بردى» لما تتضمنه من رسوم وزخارف تبرز طبيعة دمشق الخلّابة وغوطتها ونهرها الجميل بردى.

غرينية أو طينية على عمق ٢٠٠ متر، بين التلال التي تشكلت قبل ملايين السنين نتيجة البراكين والحمم.

وسميت المدينة الكسوة نسبة إلى الاحتفالات بكسوة الكعبة التي تنطلق من دمشق.

أثريّاً، تعتبر الزّاوية الصوفيّة أحد المعالم التاريخيّة ويعود تأسيسها إلى ١٣٧٠ وتقع على بعد ٥ كم جنوب مدينة الكسوة، إلى جانب خان كبير "خان دانون" الذي بني سنة ١٣٧٦ من أجل توفير مكان للمبيت لقافلة الحج.

تتوقف القافلة في الكسوة ثلاثة أو أربعة أيام لإنتظار المتأخرين والقوافل القادمة من المدن السورية الأخرى. ثم تواصل رحلتها عابرة أراضي بازلتية تمتد بشكل منحدر على مسافة ٣٣ كم بين الكسوة (تقع على ارتفاع ٧٠٨م) لتصل إلى قرية عظيمة تعرف **بالصنمين** (تقع على ارتفاع ٦٣٥م) على حد تعبير ابن بطوطة.

تقع هذه الأخيرة على مفترق طرق، جنوب تلال الصهارة البركانية، ذات الإتجاه شمالي غربي/جنوبي شرقي، وتتميّز بيئتها الجغرافيّة بتشكل الأتربة البنّية والأتربة الحمراء الغضاريّة التي تتخللها الصخور البركانية بكثافة.

تمر القافلة بعد ذلك بالقرب من مدينة ازرع (زراع حسب المصادر التاريخيّة) (تقع على ارتفاع ٥٦٦ م) وهي تقع في نفس الجزء من سهل حوران، على مقربة من هضبة ذات منشأ بركاني، حديثة التكوين، غير أن تربتها ذات الطبيعة الصخرية تكون أقل عمقاً وأقل خصوبة.

بمحاذاة أودية محليّة، تواصل القافلة سيرها في سهل فسيح تشكّل من مقذوفات بركانية قذفها جبل العرب قبل ملايين السنين، وهو ما جعل النشاط الزراعي إلى جانب غراسة الزيتون، ممكناً لا سيّما في الجيوب الترابية بها.

تمثل **بصرى** (تقع على ارتفاع ٨٣٩ م) المحطّة الثالثة في رحلة قافلة الحج، وهي تقع على الحدود الجنوبيّة من اللّجاة، على سهل منبسط، حيث الأودية قليلة العمق والتربة كثيرة الخصوبة، وهي عموماً تربة بازلتيّة داكنة. ومن عادة قافلة الحج، أن تقيم بهذه المدينة أربعة أيام ليلحق بهم المتخلفين عن الرحلة والقادمين خاصّة من دمشق.

عديدة هي الآثار التي تعود إلى الفترة الإسلاميّة بهذه المدينة، نذكر منها خاصّة المسرح الروماني الذي تحوّل إلى قلعة محصنة بدءاً من العصر الأموي، إضافة الى ٦ جوامع أثرية يعود تاريخها إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر. كما توجد في بصرى عدة حمامات، منها ما هو روماني، ومنها ما يعود للفترة الإسلامية المملوكية، ومن أهمّها الحمّام الذي يقع قبالة الجامع العمري، و قد بناه الأمير المملوكي سيف الدين منجك اليوسفي حسب ما تفيد به نقيشة تؤرخ بسنة ١٣٧٢، ويبدو من مساحته (٤٥م x ٥م) أنه كان مخصصاً للحجّاج الذين يعبرون المدينة.

وفي الجنوب الشرقي للمدينة، يوجد خزان للمياه (١٦٠م-١٢٥م)، ويعرف ببركة الحاج، ويبدو انّه استخدم في العهد الأيّوبي لسقاية قوافل الحجاج بمحاذاة مدرسة قرآنية في الزاوية الشماليّة الشرقيّة.

(Dentzer-Feydy, Vallerin, Fournet, Mukdad and Mukdad 2007).

بحسب الأمام إسحاق بن الحسن بن ميمون الحربي (المتوفى سنة ٨٩٧)، كانت مدينة الزرقاء محطة استراحة

لقافلة الحجاج، وهي تقع بين أذرعات (درعا حالياً) وقصر القسطل الأموي(Bisheh 2000 and 2005) ، تذكر المصادر التاريخية أنّ **الزرقاء** عبارة عن مكان يتوفّر فيه المياه بكثرة إلاّ أنّه خالي من العمارة (Bakhit 2008; Majali and Mas'ad 1987: 314).

يقترح بيترسون موقعين يقعان بهذه المنطقة، من الممكن أنهما كانا أيضاً على علاقة بدرب الحج في العصر الوسيط: قصر شبيب وهو يقع على نتوء بين وادي الزرقاء و أحد روافده وادي الحويجر، وكذلك خربة المكحول على قمة تلة بين بلدتي الزرقاء والسخنة (Petersen 2012: 14)

من بين الشواهد الأثرية التي لا تزال موجودة بالسخنة، يمكن أن نذكر سور بيضوي الشكل تتخلله غرف صغيرة، وفي وسط المبنى توجد على الأقل ٤ غرف متلاصقة. يشكل هذا المعلم في مجمله مخيّم موسمي شبه دائم، كان ينزل به الحجاج أثناء رحلتهم. إلّا أن الموقع الجغرافي الحقيقي لخربة المكحول، والذي يقع على مسافة بعيدة من ناحية الشمال، يطرح إشكالاً حول علاقته بدرب الحج.

شيّد **قصر شبيب** (الذي ينسب إلى الأمير شبيب المهداوي الجذامي) على أنقاض قلعة رومانية بحسب ما تفيدنا به نقش لاتينية تعود إلى سنتي (٢٥٣ -٢٥٩)، وقع إعادة استعمالها فوق القوس المحيط بباب القصر في العهد الإسلامي. و قد تحوّلت وظيفة القصر في العهد الإسلامي والعثماني لخدمة الحجاج وحماية طرق القوافل التجاريّة. وهو ما يسمح لنا اعتبار قصر شبيب المحطة الرابعة في طريق قافلة الحج الشامي (Petersen 2012: 58 -61).

تقطع الطريق التي تمر شرق مدينة الزرقاء أودية صغيرة محفورة في الصخور، تابعة لمجموعة البلقاء (صخور كلسية طباشيرية، رواسب رملية وطينية وصخور جيرية).

تتميز الترب بلون فاتح مقارنة بجنوب سوريا، وهي خاصة ترب من النوع المبتدئة التطور، تشكل إطاراً بيئياً ملائماً لإنتاج غطاء نباتي من صنف النباتات المتوسطية الجافة حيث أن كمية التساقطات لا تزيد عن ٣٥٠-٤٠٠ مم.

على مسافة من الزرقاء، حوالي ٥٠ كم جنوباً، تقع **بركة زيزيا**، شرق مأدبا (**الشكل ١٦**)، وهي المحطة الخامسة على طريق القافلة (تقع على ارتفاع ٧٥٠ م)، وهي عبارة عن هضبة صخرية خفيفة التموج، تتخللها أودية ضحلة العمق ذات اتجاه شرق-غرب، غالباً ما تحتوي على طبقة من الصخر الصغيرة والحصى التي تقطع الطريق الرئيسيّة في هذه المنطقة. كما نلاحظ وجود طبقة سميكة من الصوان المغطاة بتشكيلات من الرمل والحصى، إلى جانب تكوين الموقر الطباشيري المارلي الباليوسيني.

تحتوي هذه التكوينات على طبقات سميكة من المارل والصوان والفوسفريت، وتكون التربة في بعض الأحيان من نوع تربة المتوسط الصفراء أو البنية، مبتدئة التطور وهي تسمح بالزراعة وغراسة الزيتون خاصة إذا ما توفرت فيها رطوبة جيدة (المعدلات الحالية تتراوح بين ١٨٠-٢٠٠ مم). Calcixerollic, Xerochrepts

تحتوي مدينة زيزيا على خزان ماء كبير (٩٠x١٠٠م) بعمق ٦م يقع إلى الشمال من القلعة العثمانية بنحو ٣٠م، كما يوجد بالقرب منه مسجد يعود للفترة الأولى، تحدّث عنه الرحالة البريطاني تريستام (Tristram 1873: 187) و يبدو أنّه اندثر. (Petersen 2012: 61-68; Genequand 2012).

هل كان طريق الحج يمر عبر قرية اللجون أم اللاهون ؟

يحتوي موقع اللّجون على حصن عسكري يغطي مساحة (٤x٦) بالقرب من أودية، وخاصة وادي اللّجون، وقد قع استغلاله خلال الفترة النبطية والرومانية، وربما قبل هذا التاريخ، و من غير المستبعد أنّ هذا الحصن كان مركز الفيلق الروماني، إلاّ أن الحفريات لم تعثر على بقايا أثرية ما بعد القرن ٥ ميلادي.(Parker 1986 and 1987 ed).

١٦. بركة زيزا، المحطّة الخامسة في درب الحج الشامي (© C. Dauphin وصورة).

وقع استخدام هذا الحصن خلال الفترة الأيّوبية (السلطان الأيّوبي، الملك العادل : ١٢١٨ – ١٢٣٨) و كذلك في فترة المماليك باعتبار شواهد قطع الخزف والنقود المكتشفة داخله و التي تعود إلى ١١٩٦-١٢١٨ وكذلك ١٤٨١-١٤٨٣ (Brown 2006: 374-375، 382-384;-31 Milwright 2013: 30).

وفي تقدير بيترسون، فإن هذا الموقع لا ينطبق على ما وصفه ابن بطوطة (Petersen 2012: 14).

ويذهب بيترسون إلى أن المقصود هو قرية اللاّهون، التي تقع على الضفة الشمالية لوادي الموجب (نهر أرنون في المصادر البيزنطية) وقد كشفت الحفريات الحديثة عن فترات استيطان بهذه المنطقة تمتد من العصر البرونزي حتى العصور الوسطى (De Meulemeester 2008).

يضم الموقع مستوطنة أموية (القرن السابع- القرن الثالث عشر) يتوسّطها مبنى يحتوي على فناء مستطيل، يبدو أنه لعب دور الخان في تلك الفترة، كما كشفت الحفريات الأثريّة عن وجود مسجداً مملوكياً يعود تاريخه إلى القرن ١٥، إضافة إلى وجود منازل متجهة نحو القبلة، وقد بقي الموقع مسكوناً حتى الفترة العثمانيّة. وبالإستعانة بتقنية تحديداً أقصر مسار عن طريق برامج نظم المعلومات الجغرافية، يمكن القول أنّ الطريق كان يربط محطة بركة زيزا بمحطّة الحاج، مروراً باللاهون، وهو ما يعتبر واقعيّاً منطقي. وعند عبورها وادي الموجب، كان على القافلة أن تسير على منحدرات صخريّة خطيرة مع تعرجات ضيّقة وطويلة.

يمثّل موقع **محطة الحاج الأثري**، المحطة السادسة في طريق قافلة الحج حسب كينيدي (٧٥٠ميلادي) (Kennedy 2000: 137).

يحتوي الموقع على قلعتين صغيرتين، تتكون كل منهما من حصن مستطيل الشكل، يقع إحداها في منتصف الطريق الصاعد جنوباً في حين يقع الثاني غير بعيد على حافة الوادي الجنوبية، حيث تنتهي الطريق الصاعدة (Kennedy 2004: 144-146).

يتكون المشهد الطبيعي في هذه المنطقة من تلال قبابية مدببة، تعلوها قشرة كلسيّة، وذات سفوح شديدة الإنحدار، وهو ما يسبب انزلاقات التربة، فتغطي قدم السفوح وتتشكل الحادورات المغطاة بالحصى. ولا تختلف نوعية التربة في هذه المنطقة كثيراً عما هو موجود **باللجون أو اللاهون**، وهي تغطّي طبقات من الحجر الجيري دقيق التبلور والصوّان والفوسفريت، من النوع الذي يوجد كذلك بمنطقة القطرانة. وبالنظر لمعدل كمية التساقطات، (٢٥٠-٣٠٠ مم)، فانه من الممكن زراعة الحبوب بهذه المنطقة.

ومن هذه المحطة، يواصل الحجاج مسيرتهم حتى مدينة الكرك (قديماً تعرف باسم كاراكموبا) التي كانت مركزاً أسقفياً مهماً في الفترة البيزنطية، وسط مقاطعة كثيرة السكان، إلاّ انها كانت تشهد تراجعاً حاداً في أوضاعها تحت حكم الأمويّين والعباسيّين.

شهد المشهد الفلاحي انتعاشاً هامّاً في فترة الصليبيّين، الذين انشؤوا، سنة ١١٤٠ ، إحدى أكبر وأهم القلاع في المدينة المؤابيّة، وقد تم تأسيس بارونية في الكرك تتبع لمملكة بيت المقدس اللاتينية، وقد كانت مسرحاً للصراع

الأيّوبي الصليبي.

كانت مقاطعة / مملكة الكرك تمثل قوة اقتصادية واستراتيجيّة هامّة بالنسبة للدولة المملوكيّة: إذ كانت بمثابة سلّة الحبوب والغلال بالنسبة لمصر، إلى جانب زراعة قصب السكر التي كانت نشيطة في هذه الفترة، وقد عرفت مملكة الكرك في العهد الأيوبي باسم مملكة الكرك الأيّوبية (Hamarneh, Ben Jeddou, Dauphin and Castex 2015).

لم تكن قافلة الحج تمر من الكرك، فبشهادة ابن بطوطة نزلت القافلة خارج الكرك أربعة أيام، بمنطقة **الثنيّة** (٨٥٠ ميلادي)، التي تبعد عن الكرك مسافة ٢,٥ كم.

يقع الموقع نفسه على رأس واد صغير عند تقاطع الطريق السريع (طريق الملوك) والطريق بين الشرق والغرب الذي يربط القطرانة بالبحر الميت.

أمّا على صعيد البيئة الجغرافيّة (الطبيعيّة)، يتميز المشهد الطبيعي للثنية بخصائص متجانسة، حيث تهيمن التلال المدوّرة على نطاق واسع، وتغطي التربة طبقة من تكوين الموقر الطباشيري المارلي، إلى جانب الترسبات الطينيّة في بطون الأودية.

تكشف دراسة الخزف في الفترة الأيّوبية والمملوكية عن ظهور انتاج وافر لمختلف أنواع الخزف: سواء الخزف المزخرف بأشكال نباتيّة أوحيوانيّة، أوالخزف ذي البريق المعدني، كما عثر بموقع الثنيّة على أجزاء عديدة لمجموعة من الجرار الفخاريّة كبيرة الحجم كانت تستخدم لحفظ وخزن السوائل، خاصة الزيت، دبس السكر، وعصير التمر (Milwright 2008: 111-112; 2013: 30).

تترك القافلة الثنيّة في اتجاه الجنوب نحو الشوبك (تقع على ارتفاع ١١٠٠م)، و التي تقع على مسافة ١١٢ كم، حيث يتحوّل الطريق أحياناً إلى ممر ضيّق يمثل الحد الطبيعي الفاصل بين منطقتي الأغوار والجفر.

تكثر بهذه المنطقة التلال والربى ذات منحدرات خفيفة، حيث تتكون من طبقات طباشيريّة تحتوي على عنصرالصوّان (تكوين عمان الجيري السيليسي: صخر صوان صلب وطباشير كتلي تعلوه التوضّعات الرسوبيّة، إلى جانب وجود فوسفوريت الحسا).

في الجهة الشرقيّة، على سفوح المنحدرات تغطّي طبقة من الحصى البليوسيني صخور بركانيّة سطحيّة ناتجة عن تجمد الحمم البركانية، وتتميّز البنية الجيولوجية بوجود بعض الصدوع المحلية الخفيفة (ذات اتجاه شمال جنوب).

في مستوى تصل فيه معدلات الأمطار إلى كمية ٣٠٠مم، تتكوّن طبقة الأشجار خاصّة من البلّوط السنديان، إلى جانب النباتات الرعويّة وأهمها الشيح، خصوصاً في نطاقات الترب المبتدئة التطور (تربة الراندزينا)، كما ان زراعة الحبوب والأشجار المثمرة شهدت تطوراً هاماً خلال العهدين الأيّوبي و المملوكي بهذه المنطقة.

سنة ١١١٥، قام بودوان الاوّل، ملك القدس، ببناء قلعة في الشوبك، حيث كانت تسمّى " كرك مونتريال"، و هي تقع على جبل به عينين ماء، وبقيت القلعة في أيدي الفرنج إلى أن استسلمت أمام قوات صلاح الدين العام سنة ١١٨٩.

وعلى مسافة ٥كم من جهة الشرق، أنشات مدينة الدوسق (**الشكل ١٧**)، على نتوء يشرف على وادي نجل، وذلك بغية السيطرة على طرق شرق الأردن التجاريّة، ومن الناحية الجغرافية، يمكن أن نلتمس وجود تطابق بين موقع الدوسق من الشوبك، وموقع مدينة الثنيّة من الكرك.

و تمثّل الدوسق المحطة الثامنة في طريق الحج، وهي تقع على مقربة من "طريق تراجان الجديد" حسب ما تؤكّده حجارة إرشاديّة رومانيّة وأجزاء باقية من الطريق الروماني (Milwright 2008: 111-112; 2013: 30).

يحتوي الموقع على ٣ مجموعات من المباني محاطة بسور، مع بقايا مسجد صغيرو بركة مياه (٣٣x٤٧x٣,٨م) يمكن النزول إليها عن طريق مدرج حجري (Field 1960 ed.: 83).

نعتقد أن الموقع كان عبارة عن قلعة صغيرة محصّنة، أو ربّما خان صغير تنزل فيه القوافل في العهد الوسيط.

وفي هذه المنطقة، تترك القافلة ''طريق تراجان الجديد'' لتلتحق بالطريق المؤدّي إلى تبوك، وبحسب ابن بطوطة، تتجه القافلة مسافة ٢٥ نحو الجنوب الشرقي، وهي المسافة التي تفصل الدوسق عن أذرح، حيث ترتفع التضاريس مع انحدار في اتجاه الشرق (١٣٤٠م)، مقارنة بالمرحلة السابقة: الثنيّة – الدوسق.

من ناحية التكوين الجيولوجي، تحتوي هذه المحطّة على نفس خصائص تكوينات المحطّة السابقة تقريباً : فإلى جانب تكوين عمان الجيري السيليسي، نلاحظ وجود طبقات من تكوين فوسفوريت الحسا وكذلك من الحصى البليوسيني وخصوصاً في المناطق المنخفضة حديثة التكوين.

المشهد الطبيعي هنا، عبارة عن انحدارات مغطّاة بالحصى، وبالمخاريط الفيضيّة، مع غطاء نباتي فقير وقليل الإنتاجية بإعتبار كميّات الأمطار التي لا تتجاوز ١٠٠-١٥٠مم.

تصل القافلة مدينة **معان** (١١١٠م)، وهي المحطّة التاسعة في طريق قافلة الحجيج. وقد كشفت الحفريات الحديثة (Genequand 2003) أن المدينة شهدت ازدهاراً وتوسّعا في الفترة الأمويّة (Schick 1995: 392-393) يتكون المشهد الطبيعي من تلال وأكوام صخرية تتخللها أودية ضعيفة العمق يبرز من خلالها تكوين الموقع الطباشيري المارلي و تكوين أم الرجام الصوّاني الجيري وسط شرائط من الحصى البليوسيني (Muwaqqar Umm Rijam Chert Limestone).

تصل كميات الأمطار في هذه المنطقة إلى حدود ٤٠ مم، في حين تصل كميّة النتح التبخّري المحتمل إلى ٢٤٢٧مم.

وبالنسبة للتربة، فهي ضعيفة التطور، ولم يحدث بها تكوين آفاق بيدوجينية لحداثة تكونها، ولضعف أثر العوامل المكوّنة للتربة عليها، مثل مجموعة الكالسي أورثيدز، وهي عادة ترب الأراضي الجافة، والتي تحتوي قطاعاتها

١٧.الدوسق، ثامن محطّة في درب الحج الشامي (© C. Dauphin وصورة).

على أفق كلسي تكوّن نتيجة ترسّب الكالسيوم وتراكمها، ولذلك تنعدم النباتات تقريباً خارج بطون الأودية.

يعتمد النشاط الإقتصادي بمدينة معان على خدمة قوافل الحجيج وحماية خط القوافل (Petersen 2012: 16, 107-109).

و قد أخذت هذه المدينة أهمية خاصة في العهد المملوكي، حيث أصبحت مركزا جهويًّا، معروفاً بأهمية سوق العبيد الذي كان ينتظم بها (Elisséeff 1965: 897).

من معان إلى **فسوعة** (تقع على ارتفاع ١٠٩٣م)، المحطة العاشرة في طريقنا للحج، يتبع الطريق تلالاً تتخللها اودية ضعيفة العمق ١٠م، و تكون مدرعة بنثير من الصخور الصغيرة الحجم.

تشكل الكوكينا ظاهرة مميزة في هذه المناطق إلى جانب تواجد الفوسفات العدسي، وتكوين عمان الجيري السيليسي بالإضافة إلى وجود طبقات الفوسفات المغطاة بالتربة وبطبقة من الحصى البليوسيني في اطار تربة ابتدائية، قليلة التطور.

يذكر ابن بطوطة في رحلته "ارتحلنا إلى معان، وهو آخر الشام ونزلنا من عقبة الصوّان إلى الصحراء"(Petersen 2012: 113).

تمثل مدينة **المدوّرة** (مدينة سراغة أو سرار في المصادر التاريخيّة) المحطة الحادية عشر في طريق قافلة الحج (تقع على ارتفاع ٧٢٠م)، و هي تقع على تضاريس قليلة الانحدار، و تسير الطريق في هذه المنطقة بمحاذاة الأودية متجنبة الاكام.

تغطي المساحات المرتفعة بطبقة من المختلطة ببعض الحصي والحصباء من نوع الحصى البليوسيني، امّا بطون الأودية فتكون عادة مغطاة بطبقة عميقة من الرواسب الرمليّة.

ورغم ذكرها في العديد من المصادر التاريخية، يبدو أن المدوّرة لم تكن استراحة على طريق قافلة الحج على الأقل خلال القرن الرابع عشر (Petersen 2012: 123-124).

ذات **الحاج** هي محطتنا الثانية عشر في رحلتنا الى مكّة (تقع على ارتفاع ٧١٠م) و فيها يتميز المشهد الطبيعي برتابته، اذ تختفي فيه عنصر التلال أو الهضاب التي تغطّي عادة المكان، والتي تكون عادة ذات إتجاه :جنوب شرقي-شمالي غربي.

تغطّي المكان، مساحات شاسعة من الرمل و الحصى، كانت على القافلة أن تعبرها في رحلتها.

المراجع

عبد القادر الحصان

1999 محافظة المفرق ومحيطها عبر رحلة العصور، الطبعة الأولى، الأردن، دار الأرز للنشر

2007 عبد القادر الحصان، قلعة القطرانة خلال الفترة العثمانية، حولية دائرة الآثار العامة، المجلد ٥١، (٢٠-١٣).

عبد القادر الحصان

2008 القلاع والخانات التركية العثمانية على طريق الحاج الشامية في الديار الأردنية، منشورات وزارة الثقافة الأردنية، عمان.

رحلة ابن بطوطة

1987 تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار إحياء العلوم، بيروت.

المسعودي

1965 مروج الذهب ومعادن الجوهر، الطبعة الأولى، بيروت، دار الأندلس.

زياد السلامين

2010 الشواهد الأثرية المكتشفة بالقرب من طريق الحج الشامي في منطقة عقبة الحجاز و جوارها – جنوب الأردن، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار في عمان ٢٤: ١٧١ - ٢٠٢.

Bibliography

Dauphin, C.

1998 *La Palestine byzantine: Peuplement et Populations,* Vols I-III, BAR International Series 1000, Archaeopress, Oxford.

Dauphin, C. and Ben Jeddou, M.

2012 *Fallahin* and Nomads in the Southern Levant from Byzantium to the Crusades: Population Dynamics and Artistic Expression, *CBRL 2012 –The Bulletin of the Council for British Research in the Levant* 7: 84-86.

2013 *Fallahin and Bedu* between the Desert and the Sown: the Population Dynamics of a buffer-zone from Byzantium to the Mamluks, *The Bulletin of the Council for British Research in the Levant* 8: 18-29.

Dentzer-Feydy, J., Vallerin, M., Fournet, Th., Mukdad, R. and Mukdad, A.

2007 *Bosra. Aux portes de l'Arabie,* Presses de l'IFPO, Institut français du Proche-Orient, Beyrouth-Damas.

D'Hulster, K. and Steerbergen, J. Van (eds.)

2008 *Continuity and Change in the Realms of Islam. Studies in Honour of Urbain Vermeulen,* Orientalia Lovaniensa Analecta 171, Peeters, Leuven.

Doughty, C.M.

1888 *Travels in Arabia Deserta,* Vol. 1-2, Clarendon Press, Cambridge.

Elisséeff, N.

1995 *Ma'an,* in *Encyclopaedia of Islam,* 2nd ed., Vol. 5 : 897-898.

Faroquhi, S.

1994 *Pilgrims and Sultans: The Hajj under the Ottomans,* London.

Field, H. (eds.)

1960 *North Arabian Desert Archaeological Survey, 1925-1950,* Papers of the Peabody Museum of Archaeology and Ethnology, Harvard University, Vol. 45, No. 2, Cambridge, Mass.

Flood, F. B.

2001 *The Great Mosque of Damascus: Studies on the Makings of an Umayyad visual Culture.* Islamic History and Civilization: Studies and Texts 33, E.J. Brill, 2001, Leiden and Boston: Chs 2 and 3.

Genequand, D.

2003 Ma'an, an early Islamic settlement in southern Jordan: preliminary report on a survey in 2002. *Annual of the Department of Antiquities of Jordan* 47: 25-35.

Groom, N.

2002 Trade, incense and perfume. in St John Simpson (ed.) Pp: 88-101, *Queen of Sheba. Treasures from Ancient Yemen. The British Museum* Press, London.

Hamarneh, B., Ben Jeddou, M., Dauphin, C. and Castex, J.-M.

2015 Population Dynamics in the al-Karak Region in the Byzantine and Islamic Periods. *SHAJ* 12: 683-702

Irwin, R.

2012 Journey to Mecca: A History (Part 2). in Porter (2012 ed.): 136-219.

Jomier, J.

1953 *Le Mahmal et la Caravanne Egyptienne des Pèlerins de la Mecque (XIIIe-XXeh), Le Caire.*

Jones, J.W. and Badger, G.P. (eds.)

1863 Varthema, L. *di. The Travels of Ludovico di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta and Arabia Felix, in Persia, India and Ethiopia,* A.D. 1503 to 1508, Hakluyt Society, London.

Kennedy, D.L.

2000 *The Roman Army in Jordan.* Council for British Research in the Levant, British Academy, London.

Kennedy, D.

2004 *The Roman Army in Jordan.* Council for British Research in the Levant, London.

Kennedy, H.

2012 Journey to Mecca: a History. PP: 69-135. in Porter .

Loiseau, J.

2014 Routes et histoire: le *hajj* dans l'islam classique, *in* Saghi and Abdul Kareem, al-2014 eds: 65-84.

Majali, R. and Mas'ad, A.-R.

1987 Trade and trade routes in Jordan in the Mamluke era (AD1250-1516). in Haddidi 1987 ed.: 311-316.

Meulemeester, J. de.

2008 Rural Settlement from the Byzantine to the Mamluk times at Lehun (District of Madaba, Jordan), in D'Hulster et Steerbergen 2008 eds: 159-168.

Milwright, M.

2008 *The Fortress of the Raven: Karak in the Middle Islamic Period* (1100-1600), Islamic History and Civilization Studies and Texts 72, Leiden.

Milwright, M.

2013 Trade and the Syrian Hajj between the 12th and the early 20th centuries. Historical and Archaeological Perspectives, in Porter and Saif 2013 eds: 28-35.

Morlier, H.

2005 ed. *La mosaïque gréco-romaine* IX, Collection de l'Ecole française de Rome 352, Vol. 1, Rome.

Musil, A.

1926 *The Northern Hegaz,* American geographical Society, Oriental Explorations and Studies No. 1, New York.

Parker, S.T.

1986 *Romans and Saracens: a history of the Arabian Frontier,* ASOR Dissertation Series 6, Eisenbrauns, Winnona IN.

Parker, S.T.

1987 ed. *The Roman Frontier in Central Jordan: Interim report on the Limes Arabicus Project,* 1980-1985, BAR International Series 340, Vols 1-2, Oxford.

Parker, S.T.

2006 ed. *The Roman Frontier in Central Jordan: Final Report of the Limes Arabicus Project,* 1980-1989, Vol. 2, Washington DC.

Peters, F.E.

1994 *The Hajj. The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places,* Princeton University Press, Princeton.

Petersen, A.

2012 *The Medieval and Ottoman Hajj Route in Jordan. An Archaeological and Historical Study,* Levant Supplementary Studies 12, Oxbow Books, Oxford and Oaksville.

Porter, V.

2012 ed. *Hajj journey to the heart of Islam,* The Trustees of the British Museum, The

British Museum Press, London.

Porter, V. and Saif, L. (eds.)

2013 *The Hajj: Collected Essays,* The Trustees of the British Museum, London.

Rashid, S.A. al-.

1980 *Darb Zubayda: The Pilgrim road from Kufa to Mecca,* Riyad.

Raymond, A.

1993 *Le Caire, Fayard, Paris.*

Saghi, O. and Abdul Kareem, F.A. Al- (eds).

2014 (eds.) *Hajj. Le Pèlerinage à La Mecque.* Institut du Monde arabe, Paris.

Schick, R.

1995 *The Christian Communities of Palestine From Byzantine to Islamic Rule. A Historical and Archaeological Study,* Studies in Late Antiquity and Early Islam 2, The Darwin Press, Inc., Princeton, New Jersey.

Soucek, P.

1988 ed. *Content and Context of visual Arts in the Islamic World,* The Pennsylvania State University Press, University Park and London.

Tristram, H.B.

1873 *The land of Moab. Travels and Discoveries on the East Side of the Dead Sea and the Jordan*, John Murray, London.

Varthema, L. di. *The Travels of Ludovico di Varthema in Egypt, Syria, Arabia Deserta and Arabia Felix, in Persia, India and Ethiopia*, A.D. 1503 to 1508, in Jones and Badger (1863 eds).

Al-Wohaibi, A.

1973 *The Northern Hijaz in the writings of the Arab geographers* 800-1150, Al-Risalah Publishers, Beirut.

Wright, T.

1848 *Early Travels in Palestine*, H.G. Bohn, London.

AL-y'qobi

1883 *Ta'rikh ibn Wadih,* Houtsma, M. 1883 (ed.), Leiden